الرد على شبهات المستعينين بغير الله

تأليف

العلامة الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى رحمه الله قاضي المجمعة

المتوفى عام ١٣٢٨ هجرية

دار مصر للطباعة

٣٧ (أ) شارع كامل صدقي "الفجالة"

ترجمة حياة المؤلف

هو العلامة المشيخ أحمد بن الشيخ إبراهيم بن عيسى قاضي محكمة المجمعة الشرعية من ديار نجد ، (ولا يوجد — ولله الحمد — في نجد محكمة غير شرعية) ، مات — رحمه الله — سنة ١٣٢٨ هجرية .

كان — رحمه الله — يشتغل — إلى جانب عمله في القضاء — بالتجارة ، وغالب تجارته في الأقمشة القطنية . جالس أمير مكة الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون المتوفى عام ١٣٢٣ هجرية ، فأقنعه بهدم القباب المشيدة على قبور الصالحين في مكة وجدة والطائف إلاّ قبة القبر المزعوم أنه قبر حواء أم البشر في جدة ، وقبة قبر السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبة قبر آمنة المزعوم أنه في مكة ، وقبة قبر ابن عباس بالطائف ؛ فإنه لم يهدمها خوفاً من السلطان عبد الحميد العثماني أن يعزله من الإمارة (السلاطين والملوك يبنون القباب على قبور الصالحين وقبور أجدادهم ، وقد رأيتها في استانبول وبورسة ، والعلماء في كل عصر منهم الخائف من تهمة أنه وهابي ، وأما المتصوفة فجاءت على أهوائهم . وفي كل عصر للتهم أنواع ، والمسلمون والعرب مظلومون من الأقوياء ، سلطهم الله بعضهم على بعض ، وجعل بأسهم بينهم شديداً) .

وكان يتردد بين جدة ومكة لشراء الأقمشة من الشيخ عبد القادر بن مصطفى التلمساني أحد تجار جدة ، ومن ذوي الأملاك في القطر المصري . كان يدفع له أربعمائة جنيه ويشتري بألف ، ويسدد الباقي على أقساط بضمانة الشيخ مبارك المساعد البسام من التجار ومن أهل عنيزة (ناحية القصيم وسط نجد) . وقد دام التعامل بينه وبين الشيخ التلمساني زمنا طويلا . وكان لصدقه وأمانته ووفائه بوعده أثر طيب في نفس الشيخ التلمساني ، حتى أنه لم ير ضرورة

للضامن ، وأخذ يبيعه ما يحتاج إليه بوثيقة تسدد فيما بعد على أقساط . وقال له : « إنى عاملت الناس أكثر من أربعين عاما فما وجدت أحسن من التعامل معك ياوهابى ، يظهر أن ما يشاع عنكم يا أهل نجد مبالغ فيه من خصومكم السياسيين ، بسبب الحروب التى وقعت بينكم و بين أشراف مكة والمصريين والأتراك ، فقد أشاعوا عنكم أقوالا منكرة» . فسأله الشيخ أحمد—المؤلف — أن يبينها له . فقال الشيخ التلمسانى : يقولون إنكم لا تصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ولا تحبونه . فأجابه المؤلف : « سبحانك هذا بهتان عظيم . كيف ومن لم يصل عليه فى التشهد فى الصلاة فصلاته باطلة ، ومن لا يحبه فكافر ، وإنما نحن أهل نجد ننكر الاستغاثة والاستعانه بالأموات ، ولانستغيث إلا بالله وحده ، ولانستعين إلا به سبحانه ، كما كان على ذلك سلف الأمة » . وقد استمر النقاش بينه و بين الشيخ التلمسانى ثلاثة أيام . وأخيراً هدى الله الشيخ التلمسانى للحق ، وصار موحداً ظاهراً و باطناً .

ثم سأله الشيخ التلمسانى أن يوضح له بعض أوجه الخلاف بينهم و بين خصومهم ، فقال : إننا نعتقد أن الله فوق سماواته ، مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ، من غير تشبيه ولا تجسيم ولا تأويل ، وهكذا فى جميع آيات الصفات والأحاديث كما هى عقيدة السلف الصالح ، وكما جاء عن الإمام أبى الحسن الأشعرى فى كتابيه : الإبانة فى أصول الديانة ، ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين . وقد دامت المناظرة بينهما خمسة عشر يوماً ، لأن الشيخ التلمسانى كان أشعريا درس فى الجامع الأزهر كتب العقائد السنوسية ، وأم البراهين ، وشرح الجوهرة ، وغيرها ؛ وقد انتهت هذه المناقشات الطويلة باقتناع الشيخ التلمسانى بأن عقيدة السلف هى الأسلم والأحكم والأعلم . ثم صار الشيخ التلمسانى داعياً من دعاة العقيدة السلفية ، وطبع على نفقته كتباً كثيرة

كان يوزعها بالمجان مثل : « الصارم المنكى فى الرد على السبكى — لابن عبد الهادى » ، و « القصيدة النونية المسماة الشافية — لابن قيم الجوزية » ، و « الاستعاذة من الشيطان الرجيم — لابن مفلح » ، و « المؤمّل فى الرجوع إلى الأمر الأول — لابن أبى شامة المؤرخ الدمشقى » ، و « والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان — لابن تيمية » ، و « الرد الوافر — لابن ناصر الدين الدمشقى ، مع رسائل أخرى ضمّن الرد الوافر » ، و « غاية الأمانى فى الرد على (شواهد النبهانى) — للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى » . وشاركته فى نفقات الطبع ، واشترى نسخاً من تفسير الطبرى ووزعها على بعض الناس ، وكان لسانه لسان ابن حزم بخشونة لا يصبر عليها أحد ، رحمهم الله أجمعين .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد هدى الشيخ التلمسانى على يد الشيخ أحمد بن عيسى ، فقد هدانى — أنا أيضاً — على يده . ومن مؤلفات المترجم :

١ — الرد على المدراس والسندى والحابى فى مجموعة الرد الوافر .

٢ — شرح نونية ابن قيم الجوزية . (لم يطبع) .

٣ — الرد على ماجاء فى تاريخ خلاصة الكلام عن الوهابية لدحلان . (لم يطبع) .

وكان له تلاميذ كثيرون ، ومن أشهرهم : الشيخ عبد القادر التلمسانى المغربى ، والشيخ أبو بكر بن محمد عارف خوقير المكى الكتبى . وأما فى نجد فكثيرون .

كتبت هذه المقدمة وأنا بعيد عن مكتبتى ، والحمد لله الذى هدانا للحق ؟

كتبه الناشر

محمد نصيف

الرد على شبهات المستعينين بغير الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أظهر الحق وأنارَه ، ومحق الباطل وأبارَه . أحمده على ظهور حجج التوحيد ووضوحها ، وأشكره على تبديد شبه الشرك وفضوحها . وصلى الله على سيدنا محمد المحامى عن توحيد مولاه ، القائل إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله ، الزاجر لمن إلى ذرائع الشرك تعدَّى ، القائل لمن قال له ماشاء الله وشئت : أجعلتنى لله نِدّا ؟ وعلى آله وصحبه المهتدين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما . اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، ولك المستغاث ، وأنت المستعان ، وعليك التُّكلان ، ولاحول ولاقوة إلا بك .

أما بعد ، فقد وقفت على كراسة لبعض العصريين من أهل العراق ، سماها « أنموذج الحقائق » ، وضمنها كثيرا من الهَذَيان والشقاشق ، مضمونها الانتصار للشرك بالله ، المسمى بالتوسل ، وتجويزُ دعوة الأموات والغائبين من دون الله تعالى واستحبابُه ، والتَشنيعُ على من يمنع من ذلك وسِبابُه ، فأحببْت أن أبين بطلان ما تضمنته كراسته من الشبهات الواهية ، والتُّرّهات المتناهية ، وأن أزيح شُبُهاته ببراهين التوحيد الساطعة ، وأوضح ضلالاته بحجج الكتاب والسنة القاطعة ، وكلام علماء الإسلام ، ومصابيح الاهتداء فى الظلام . لقد خاب ظن المشركين إذ راموا نقض أدلة التوحيد التى هى أرسى من الجبال ، وأظهر من الشمس فى نحر الظهيرة ، والبدر فى ظُلَم الليال .

والرسالة المذكورة شبه لا شىء ، لكن ربما يُخيل بها إلى بعض قاصرى الأفهام ، أو لعله يحصل عليهم بها إيهام ، ونحن نكتب على بعضها ما تنتقض

به شبهاته ، وتبطل به خيالاته وتُرَّهاته ، وبالله توفيقى ، وعليه اعتمادى ، وإليه تفويضى واستنادى ، عليه توكلت وإليه أنيب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

واعلم أن هذا الرجل يُكثر من نقل كلام شيخ الإسلام بن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ، و يظهر تعظيمهما ، و بينه و بينهما بون كبير ، وفرق كثير ، فهما رحمة الله عليهما قد شحنا تصانيفهما ، وملأا تآليفهما بذكر التوحيد وأدلته ، و إيضاح براهينه ، والجواب عن شبه المشركين من أمثاله ، وبيان ضلالهم ، وتبديد شملهم ، وقطع أوصالهم ، وكم لهما فى الرد على مثله من كتاب وجواب . وهذا المخذول إن نقل من كلامهما شيئا ، حذف بعضه أو أفسده بالتصرف ، واستكرهه بالتأويل والتعسف ، ليوافق مذهبه وانتحاله ، وليطابق إفكه وضلاله ، و يحسن أن ينشد فيه :

أيها المدعى سُلَيْمَى سِفاهًا ... لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سُلَيْمَى كواوٍ ... أُلحقت فى الهجاء ظلما بعَمْرو

واعلم أنه قد تصدى للرد على رسائله ، التى مضمونها الدعوة إلى الشرك بالله ووسائله ، وانتصب لقمع أباطيله ، و إيضاح تلبيسه وأضاليله ، جمع من العلماء ، وجُل من الأئمة الفهماء ، منهم : شيخنا العلامة فقيه زمانه ، وقدوة عصره وأوانه ، عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين ؛ وشيخنا العلامة الأوحد ، واللوذعىّ الهمام المفرد ، ناصر الموحدين ، وقامع الملحدين ، عبد الرحمن بن حسن ؛ ومنهم شيخنا العلامة ، والأوحد الفهامة ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن ؛ ومنهم العلامة المحدِّث فخر الديار اليمنية ، الشريف محمد بن ناصر الحازمىّ ، والشيخ العلامة المحقق نعمان بن السيد محمود البغدادىّ .

ولنقدم بين يدى المقصود مقدمة نافعة ، وقاعدة جامعة ، فأقول وبالله التوفيق .

اعلم أرشدك الله تعالى أنه قد قام البرهان والإجماع ، على أنه لا يجوز لأحد أن يعدل عما فى الكتاب والسنة ، واتفق عليه سَلَف الأمة وأئمتها ، إلى ما أحدثه بعض الناس مما يتضمن خلاف ذلك ، ويُوقع الناس فى تلك المهالك ، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده ، بل عليه أن يتّبِع ولا يبتدِع ، ويقتدِىَ ولا يبتدى . فإن الله سبحانه بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وقال له : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعن » . وقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » . والنبى صلى الله عليه وسلم ، علم المسلمين جميع مايحتاجون إليه فى دينهم ، فأخذ المسلمون جميع ما يحتاجون إليه فى دينهم من العبادات والاعتقادات وغير ذلك ، من كتاب الله وسنة رسوله ، وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وليس فى الكتاب والسنة والإجماع إلا الحق .

فإن الله تعالى قال : « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء ، وهدًى ورحمة وبشرى للمسلمين » . وقال تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . فالهدى والنجاة ، فى رد ما اختلف فيه الناس فى أبواب العلم ، إلى صريح الكتاب ، وصحيح السنة وحسنها ، وسبيل سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان ، واقتفى أثرهم بالإسلام والإيمان . فمن اعتمد على هذا الأصل ، دفع به كل شبهة يوردها مبطل ، فيما يخالف أصل الدين ، أى الإخلاص والمتابعة .

فإن الأدلة المجمع عليها ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، وإجماع سلف الأمة ، وفى القياس خلاف بين العلماء : هل يكون صحيحه دليلا أم لا ؟ وكل قياس

يخالف كتابا أو سنة نصّا أو ظاهرا ، أو إجماع سلف الأمة وأئمتها ، فهو فاسد الاعتبار ، لا يعوّل عليه عند جميع العلماء ، من أهل السنة والجماعة .

فإذا قال أحد قولا يخالف ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، رُدَّ قوله و بطل ؛ أما إذا صح قياسه على مدلول الكتاب أو السنة ، ولم يكن هناك فارق ، فأكثر العلماء يقول بمثل هذا ويحتج به .

واعلم أن التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وخلق الخلق لأجله ، ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

توحيد الربوبية والملك ، وهو اعتقاد أن الله تعالى رب كل شيء ومليكه ، وخالق كل شيء ورازقه ، والمتصرف فيه بمشيئته وعلمه وحكمته . وهذا القسم قد أقر به مشركو العرب ، كما قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . فقل أفلا تتقون » ؟ وقوله : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون »؟ الآيات ، وما فى معناها . وهذا التوحيد لا يكفى وحده ، ولا يُدْخِل فى الإسلام وحده ، بل لابد أن يأتى العبد معه بلازمه ، وهو :

القسم الثانى :

توحيد الطلب والقصد ، وهو توحيد الإلهية ، المبنى على إخلاص التأله لله تعالى ، وإفراده بجميع العبادة . وهذا التوحيد هو الذى افتتح به الرسل دعوتهم ، كما قال نوح عليه السلام لقومه : « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » ، « أن لا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم .

وقد أخبر تعالى أن المشركين يخلصون الدعاء لله فى الشدائد ، كما قال تعالى : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخُفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب » .

بيّن تعالى أنه لا ينفعهم إخلاصهم فى حال دون حال ، ولا ما أقروا به لله تعالى من القدرة على الاختراع ، كما تقدم فى الآيتين ، فوجب قتالهم ، لأنهم لم يخلصوا لله العبادة ، ولم يكفروا بعبادة كل ما عُبِد من دونه . وهذا هو مدلول كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله » ، ومعناها نفى الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى ، وإفراده بالإلهية ، كما قال تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا » .

وقال عن خليله عليه السلام : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّنى بَرَاء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه . فتأمل كيف عبر عنها بمدلولها من النفى والإثبات .

وأخبر الله تعالى عن المشركين أنهم أبَوا أن يقروا بمعناها الذى دلت عليه ، كما قال تعالى : إنهم كانوا « إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » ؟ فتبين أن المطلوب منهم بهذه الكلمة ، ترك عبادة الآلهة ، وذلك الترك لا يَدْخُل أحد فى الإسلام إلا به . كما قال آزر لابنه إبراهيم عليه السلام : « أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم » ؟ وهذا هو معنى الحنيف فى قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ، ولم يكن من المشركين » . وفُسر الحنيفُ بأنه المقبل على الله ، المعرِض عن كل ما سواه ، قاله ابن القَيِّم . وقال ابن كثير : الحنيف المنحرف عن الشرك قصدا إلى التوحيد . وكل سورة من القرآن فيها ما يدل على هذا التوحيد ، فتارة يأمر به تعالى

عباده ، وتارة ينهاهم عن الشرك المنافى له ، كما سنذكر بعض ذلك فى هذا الجواب ، وبالله التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

القسم الثالث :

توحيد الأسماء والصفات : وهو العلم والاعتقاد بأن الله تعالى بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، حىٌّ قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، منزه عن كل عيب ونقص ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، سميع بصير ، رءوف رحيم ، على العرش استوى ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، له الأسماء الحُسنَى ، والصفات العُلَى . فما أثبت الله لنفسه ، وأثبته له رسوله ، من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وجب إثباته له ، على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته ، إثباتا بلا تمثيل ، وتنزيها بلا تعطيل ، وهذا هو الذى عليه الصحابة والتابعون ، والأئمة الأربعة ومن فى طبقتهم ومن بعدهم من أهل الحديث ، وأتباع الأئمة الأربعة من أهل الحديث ، والفقهاء من أهل السنة والجماعة .

وأول ما حدث من الإلحاد فى أسماء الله وصفاته ، بنفى ما دلت عليه الأسماء والصفات ؛ مقالة الجَعْد بن دِرْهم ، فأنكر ذلك أهل العلم من التابعين ، وضحَّى به الأمير خالد بن عبد الله القَسْرِىّ ، وقصته مشهورة فى التاريخ ، قال العلامة ابن القيم :

ولأجل ذا ضَحَّى بجعد خالد الـ ... قَسْرِىُّ يوم ذبائح القُربان
شكر الضحية كلُّ صاحب سنة ... لله دَرُّك من أخى قُربان

ثم جاء بعده جَهْم بن صفوان ؛ فجحد صفات الرب وحكمته ، وأنكر ذلك عليه الأئمة من الفقهاء وأهل الحديث ، وصنفوا المصنفات فى رد قوله ،

وإثبات صفات الرب تعالى ، واستدلوا بأدلة الكتاب والسنة ، وآثار السلف ، على إثبات ماوصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ، لايتجاوزون القرآن والحديث ، وهم العدد الكثير ، والجم الغفير . والأمر كما قال نعيم بن حماد الخزاعيّ شيخ البخاريّ ، قال : «من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ، ولا ما وصفه به رسوله تشبيها » . وكتبهم مشهورة يتداولها المسلمون ، وعدها يخرج بنا عماقصدناه من الاختصار . ومن أراد الاطلاع على معتَقَد أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا ، فليطالع تفسير الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ ، وتفسير الحسين بن مسعود البغويّ ، وتفسير العماد بن كثير الشافعيّ ، ونحوَها من تفاسير أهل السنة ؛ وكذلك كتب الحديث ، كالصحيحين والسنن والمسانيد ، فإن الحق عليه نور ، والحمد لله على معرفة الحق ، واتباع سبيل أهل الإيمان والصدق ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، غير مكْفِّي ولا مكفور ، ولا مُودع ولا مستغنى عنه ربُّنا .

وهذا حين الشروع فى رد شبه العراقيّ .

قال فى كراسته : «واليمين بالنبيّ صلى الله عليه وسلم منعقِد ، وبسائر الأنبياء ، كما أطبق عليه علماء المذهب سوى الشيخ ، فإنه خالف أهل المذهب ، ولم يصرح بمراده ، والظاهر أنه لايستحب عنده بل يكره كراهة تنزيه » انتهى .

قوله : « سوى الشيخ » : يعنى به شيخ الإسلام بن تيمية .

أقول : انظر إلى هذه الجرأة والكذب على العلماء ، ولنذكر كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ، قال فى كتاب الاستغاثة .

« وقد اتفق العلماء على أنه لاتنعقد اليمين بغير الله ، وهو الحلف بالمخلوقات ، كالملائكة والكعبة أو أحد من الشيوخ ، بل يُنهَى عنه ، إما نهيَ تحريم

أو تنزيه . فالصحيح أنه نهيُ تحريم ، وهو قول أكثر العلماء ، فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمُت » . وفى الترمذىّ عنه أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين إنه تنعقد اليمين بأحد من الخلق ، إلا فى نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإن عن أحمد فى ذلك روايتين ، فى انعقاد اليمين به ، وقد طرد بعض أصحابه كابن عَقيل ، الخلاف فى سائر الأنبياء ، وهذا ضعيف ، والقول بانعقاد اليمين بالنبى صلى الله عليه وسلم ضعيف شاذّ ، لم يقُل به أحد من العلماء فيما نعلم ، والذى عليه الجمهور : مالك ، والشافعىّ ، وأبو حنيفة ، أنه لا تنعقد اليمين به ، كإحدى الروايتين عن أحمد ، وهو الصحيح » انتهى كلامه .

فانظر حكاية هذا الضالّ عن علماء المذهب ، انعقاد اليمين بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، و بسائر الأنبياء ، وانظر حكاية الشيخ : الاتفاق على أنه لا تنعقد اليمين بالمخلوقات ، إلا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فإن عن أحمد رواية فى انعقاد اليمين به ، و إن الذى عليه الجمهور ، عدمُ انعقاد اليمين به ، وانظر إلى تصحيحه أن النهى عن الحلف بالمخلوقات نهى تحريم ، وهذا المُلْبِس يقول : (ولم يصرح بمراده) وأى تصريح أبلغ من هذا ؟ نعوذ بالله من الهوى .

فصـــل

قال العراقىّ : « إن المانع من نداء الأنبياء والصالحين ، وسؤالهم بعد موتهم . وفى غيبتهم ، يستدل على المنع ، بأن النداء والطلب عبادة ، والعبادة لغير الله شرك . قال : فإذا جاز هذا فى حقه صلى الله عليه وسلم ، دل على أنه ليس كما يزعمه الخوارج من أن ذلك عبادة ، ودلّ على أنه إذا جاز فى حقّ النبى صلى الله عليه وسلم جاز فى غيره » .

والجواب أن يقال : هذا الضالّ لا يعرف العبادة ، ولا ماذكره العلماء فى تعريف العبادة ، بل هو لا يعرف ما أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، من توحيد الإلهية ، ووجوب إفراده تعالى بالعبادة ، بل نشأ على الشرك ، وسِيطَ بلحمه ودمه ، فلا يعرف غيره ، ولا يفهم سواه .

قوله : إن المانع من نداء الأنبياء والصالحين وسؤالهم بعد موتهم . . . ألخ

أقول : انظر إلى شدة جهالته ، وعظمة ضلالته ، لمّا رأى شَناعة إطلاق القول ، بجواز دعاء غير الله تعالى ، عدل إلى لفظ النداء ، تلبيسا وتمويها على الجهال والطغام ، فكأنه لم يسمع ما ذكره الله تعالى فى كتابه ، من أن مدلول النداء والدعاء واحد . قال الله تعالى: « ذكرُ رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إنى وهن العظم منى » . فقوله « رب » هذا هو الدعاء ، سماه نداء ، ثم قال : « ولم أكن بدعائك رب شقيا » فتبين أن النداء فى هذه الآية هو الدعاء لاغير .

وقال فى سورة آل عِمْران « هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب » فقوله « رب » هو الدعاء فى قوله . « هنالك دعا » .

وفى سورة مريم قال : « إذ نادَى » وفى سورة آل عمران قال : « دعا » والصيغة واحدة . ثم قال : « إنك سميع الدعاء » ، وقال تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

وفى الحديث مرفوعا : « دعوة أخى ذى النون: « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ، ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله عنه » .

وقال تعالى : « ونوحا إذ نادى من قبلُ فاستجبنا له » ، وقال « فدعا ربه أنِّى مغلوب فانتصر » ، فمدلول الدعاء والنداء واحد . وقال تعالى : « وأيوب إذ نادى ربه : أنى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنت أرحمُ الراحمين » ، وقوله : « وزكريا إذ نادى ربه » . . . الآية .

وفى الحديث عن الصَّلْت بن حكيم بن معاوية بن حميدة القشيرىّ ، عن أبيه ، عن جده : «أن أعرابيا قال : يارسول الله ، أقريب رَبُّنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : « وإذا سألك عبادِى عنِّى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » إذا أمرتهم أن يدعُونى فدعَونى أستجيب لهم» . رواه ابن جرير ، وابن مَرْدُويَه ، وأبو الشيخ الإصبهانى ، من حديث محمد بن حميد ، عن جرير (كَذَا بِهِ) ، والأدلة على هذا من الكتاب والسنة كثيرة ، وكذا كلام العرب ، قال كعب ابن أسد الغَنَوىّ :

وداعٍ دعا يا من يُجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيبُ

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جَهرةً لعل أبى المغوارِ منكَ قريبُ

وقال آخر :

فخيرٌ نحن عند الناس منكم إذا الداعى المثَوِّب قال يالَا

وقال آخر :

فقلتُ ادعى وأَدْعُ فإن أنـ ـدى لِصوت أن ينادىَ داعيان

وفسر قوله تعالى «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله» بالمؤذن ، وهوالذى ينادى بالصلاة .

والمقصود أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام العرب ، دالة على أن النداء الذى هو السؤال والطلب ، هو مسمى الدعاء ، ومعناهما واحد . وسيأتى فى هذا ما يكفى ويشفى إن شاء الله تعالى ، كقوله تعالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله مَنْ لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون » الآية . وهذا صريح فى أن المراد بهذا الدعاء السؤال والطلب من غير الله ، وهذه حال الميت والغائب ، لا يستجيب للداعى ، وهو أيضا غافل عنه .

وهذا الدعاء الذى نهى الله عن أن يُقْصد به غيره ، يجمع من أنواع العبادة كثيرا . منها : أن الداعىَ يتوجه بوجهه وقلبه ولسانه إلى غير الله ، ويتضمن رجاءه ، والرغبة إليه ، والاعتماد عليه ؛ ولذلك وصفه الله تعالى بغاية الضلال ، وأخبر أن ذلك يعود عليه بالخيبة والوبال ، فى مقام الحشر ، فيخونُه ذلك الدعاء أحوجَ ما يكون إليه .

إذا تبين هذا ، فالتحقيق أن بين الدعاء والنداء عموما وخصوصا مطلقا ، فيجتمعان فى السؤال والطلب ، إذا كان عن رغبة أو رهبة ، وينفرد الدعاء إذا كان عبادة ، كالتسبيح والتحميد والتكبير وغير ذلك . إذا عرفت هذا ، فإن أشكل عليك كون الدعاء عبادة ، فاطلب الأدلة على ذلك من القرآن الكريم ، فإن لم يكفك — لا كفاك الله — فاطلبها من السنة ، فإن لم تكفك فقد تم خُسْرانك .

قال تعالى : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » ، فى سورة غافر ، وقال تعالى : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء » الآية . وهذه الآية فى دعاء المسألة ، دلت على أنه مختص بالله ، دون من سواه ، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر . ثم قال : « والذين يدعون

من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » . بيَّن أن دعاء غيره لا يحصل لداعيه غرضه ، وهذا جنس الشرك فى الإلهية .

وفى حديث أنسٍ الذى فى السُّنَن والمسانيد مرفوعا : «الدعاء مُخُّ العبادة» . وفى السنن مرفوعا ، من حديث النعمان بن بَشِير : « الدعاء هو العبادة » . ثم تلا : « وقال ربكم ادعونى أستجبْ لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جَهَنَّمَ داخرين » .

وتقرير هذا فى كتاب الله تعالى ، فإن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بدعائه ، ورغبهم فيه ووعدهم الإجابة ، فقال تعالى: «و إذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشُدُون » . وأمرهم بدعائه فى مواضع كثيرة من كتابه ، كقوله : «ادعوا ربكم تضرعا وخُفْية» ، إلى قوله « وادعوه خوفاً وطمعاً » . وقال : « فادعوا الله مخلصين له الدين » ، وقال : « فادعوه مخلصين له الدين » . فأوجب على عباده أن يخلصوا له الدعاء بنوعيه : دعاء المسألة ، ودعاء العبادة ، وكل منهما يتضمن الآخر ، وقد تقدم أن الله تعالى قد اختص به فى قوله : «له دعوة الحق» . وقال تعالى : « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » . وقوله: «قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا» .

وهذه الآيات مع ما تقدم ، فيها الدلالة على أن دعوة غير الله شرك وضلال ، كما قال : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » ؟ وفى الترمذىّ من حديث أبى هريرة قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج عُنُق من النار ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إنى وُكِّلت بثلاثة ؛ بكل جبار عنيد ، و بكل من دعا مع الله إلها آخر ، و بالمصوِّرين » . حديث حسن ، صحيح ، غريب .

أمَا علمت أن الله تعالى أمر نبيه بإخلاص العبادة له ، كما نهاه أن يدعوَ غيره ، فقال : « فاعبدِ الله مخلِصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » . وقال فى آخر السورة : « قل أفغير الله تأمرونّى أعبدُ أيها الجاهلون » ؟

وقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص جميع أنواع العبادة لله ، وخلع الأنداد التى كانت تعبدُها أهل الجاهلية ، من صنَم وغيره ، وجاهدهم على ذلك حقّ الجهاد ، وناظر النصارَى فى عبادتهم المسيح ابن مَريمَ عليهما السلام ، وأنزل الله تعالى النهى عن دعوة الأنبياء والصالحين والملائكة ، فقال : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه . فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » .

والآيات بعدها نزلت فيمن يدعو المسيح وأمه ، والعُزَيْر والملائكة ، فى قول أكثر المفسرين من السلف . فمن بلغته هذه الأدلة ، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرضيه الإعراضُ عن سؤال ربه والرغبةُ إليه ، ورجاؤُه والاعتماد عليه ، فقد ظن برسول الله صلى الله عليه وسلم ماهو برىء منه ، كما برأه الله تعالى بقوله : « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا » . وقوله : « ومَنْ أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

فى هذه الآية من الأدلة على بطلان دعوة غير الله فوائد ، منها : أن الله تعالى حكم على من دعا غيره بغاية الضلال ، وبيّن أن المدعوّ لا يستجيب له ، وأنه غافل عن دعائه ، تكذيبا لمن ادعى غير ذلك من المشركين ، وأنه يوم القيامة يكون عدوًّا لمن دعاه فى دار الدنيا ، وأنه يُنكر عبادته له ، ويبرأ إلى الله منها . كما أخبر عن المسيح عليه السلام أنه قال : « ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم » . فخان المشركَ دعاؤه لغير الله أحوجَ ما كان إليه ، وعامله الله بنقيض قصده .

و يشبه هذه الآية قولُه تعالى : « ذلـكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملـكون من قِطْمير ، إن تَدْعُوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لـكم ، و يوم القيامة يكفرون بِشرْكـكم » .

ففى هذه الآية سِت جمل تقطع عِرْق الشرك ، وتبطل دعوة غير الله كائنا مَنْ كان .

الجملة الأولى: قوله «ذلـكم الله ربكم له الملك» ، فهو المختص بالملك ، كما هو المختص بالعبادة . وقوله : «والذين تدعون من دونه مايملـكون من قطمير » : دليل على أن غيره لايملك شيئا . فإذا كان الأمر كذلك ، وجب ألاَّ يدعى غيره . وقوله :«إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم»، وهذا نقيض ماعند المشركين ، أنّ المدعوَّ الميت يسمع ممن دعاه ، والله تعالى يقول : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم » . آمنا بالله ، وكذَّبنا من أشرك بالله .

وقوله : « ولو سمعوا مااستجابوا لـكم » : يدل على أن الاستجابة ممتنعة فى حق من دعا غير الله ، فخـاب أمله ، وضل سعيه .

وقوله : « و يوم القيامة يكفرون بشرككم » : فيه أن دعوة غير الله شرك بالنصّ ، وأن المدعو يكفر بها يوم القيامة ؛ أى ينـكرها و يبرأ إلى الله من ذلك الشرك . « ولا ينبِّئك مثل خبير» : ففيه وجوب الإيمان بما دلت عليه هذه الآية ، وتصديقه فيما أخبر ، وتضمنت هذه الآية أن الدعاء الذى نهى عنه فى هذه الآية ، أنه دعاء المسألة ، بدليل قوله « لايسمعوا دعاءكم » . والأدوات التى تستعمل فى الدعاء كثيرة معروفة ، وأكثر ما يستعمل منها فى الـكتاب والسنة وغيرها « يا » الممدودة ، كقوله : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، وقوله : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » التقدير ، « يا ربنا » .

وتستعمل فى الدعاء مذكورة ، كما جاء فى كثير من الأحاديث ، كقوله : « ياحىُّ يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا بديع السماوات والأرض ، يا ودود ، ياذا العرْش المجيد ، يا فعالاً لما يريد » . ونحو ذلك ، وهذا كثير مطرد ، لايقدر أحد على دفعه . ويأتى الدعاء أيضا بصيغة الخبر ، ومعناه الدعاء ، كقولنا : صلى الله على النبى محمد ، وقولهم : بارك الله فيك ، ونحو ذلك .

والعَجَب أن هذا خَفِىَ على من يدعى المعرفة ، وسببه نسيان العلم ، كما ذكره الله تعالى فى قوله : « ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله ، فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا سبحانك ، ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوما بُوْرا » . فنسيان الذكر من أعظم أسباب ضلال من ضلّ عن الهدى . وقد قال تعالى : « ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لابُرْهان له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » . فدلت هذه الآية الكريمة ، على أن من دعا مع الله إلهاً آخر ، أنه كافر بالله ، لأنه صرف هذا النوع الذى هو من خصائص الإلهية ، إلى من لا يستحقه ، ووضع العبادة فى غير موضعها .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » . فلم ينفعهم ذلك الدعاء فى الوقت الذى أمّلوا فيه نفعه ، فوقعوا فى نقيض قصدهم ، وخاب أملهم وسعيهم ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر .

فصـــل

وقد أمر الله سبحانه بدعائه ، وشرعه لعباده ، وأحبه منهم ، وسماه دِينا ، وأتى فيه بأل المعرفة المؤكدة ، فقال : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . وهذا شأن العبادات ، فما أمر به سبحانه عباده ، ففعله عبادة .

وفى الحديث: «من لم يسْأَلِ الله يغضبْ عليه» وفى حديث آخر: «الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض». فكيف والحالة هذه أن يجعل لله شريكا فيما شرعه لعباده ، وأمرهم بأن يخلصوه له ، ونهاهم أن يجعلوا له شريكا فيه ، كما قال تعالى : «قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله » ؟ إلى قوله : «وأمرنا لنسلم لرب العالمين» .

وقد تقرر أن الدعاء يجمع من أنواع العبادة كثيرا ، كإسلام الوجه لمن يدعوه ، والرغبة إليه ، والاعتماد عليه ، والخضوع له ، والاطراح والتذلل ؛ فمن أسلم وجهه لغير الله فهو مشرك ، شاء أم أبى ، ومن رغب عن الله إلى غيره فكذلك ؛ قال الله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

قال ابن كثير فى الآية : أى أخلص العمل لربه ، عز وجل ، فعمل إيمانا واحتسابا وهو محسن ، أى مُتَّبع فى عمله ماشرعه الله له ، وماأرسل به رسوله ، من الهُدَى ودين الحق . فمن فقد الإخلاص ، كان منافقا ، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلا ، ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين ، الذين يُتَقَبل عنهم أحسن ماعملوا ، ويتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يُوعَدون .

والحنيف : هو المقبل على الله ، المعرض عن كل ماسواه ، كما تقدم ، وهذا هو حقيقة دين الإسلام ، وقد اشتدت غُرْبته فى هذا الزمان وقبله ، حتى عاد

المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، نشأ على هذا الصغير ، وهَرِم عليه الكبير ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، ورغب كثير عن إخلاص العبادة للذى له الملك كله ، والقدرة التامة ، والمشيئة النافذة ، فجعلوا له شركاء فى عبادته ، والحاذق منهم يتعلق بأمر الشفاعة .

وقد أخبر تعالى أن الشفاعة جميعها له ، فمن طلبها من غير الله ، فقد طلبها ممن لا يملكها ، ولا يسمع ولا يستجيب ، وفى غير الوقت الذى تقع فيه ، ولا قدرة له عليها إلا برضاء من هى له ، و إذنه فيها وقبوله ، فطلبها ممن هى له فى دار العمل عبادة من جملة العبادات ، وصرف ذلك الطلب لغيره شرك عظيم .

ومن تدبر آيات الشفاعة حق التدبُّر ، علم علما يقينا أنها لا تقع إلا لمن أخلص أعماله كلها لله ، واتبع ماجاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من توحيده وشرائع دينه ، فليس لله من عمل عبدِه إلا الإخلاص ، كما قال تعالى : « ألا لله الدين الخالص » . وقال : « لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ولكن ينالُه التقوى منكم » ، وهو لا يقبل الشركة فى الأعمال ، ولا يرضاها ، قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » . وقال تعالى : « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار » . وكما صح من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : أنا أَغنَى الأغنياء عن الشرك ، من عمِل عملا أَشْرَكَ معى فيه غيرى ، تركته وشِرْكه » .

فصـــل

والدعاء : صلاة ، وهو اسمه لغة ، وجاء فى القرآن كذلك ، قال تعالى : « وصلِّ عليهم إن صلاتَك سَكَنٌ لهم » : أى ادعُ لهم .

وفى الحديث من هذا كثير ، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الملائكة تصلِّى على أحدكم مادام فى مُصَلّاه الذى صلى فيه ، مالم يحدث : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » . قال الحافظ العراقىّ : المراد بصلاة الملائكة عليه : ما فَسّره به فى بقية الحديث ، من قولهم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه . وهذا دعاء ، وشواهده فى اللغة كذلك .

ومنه قول الأعشى :

تقول بِنتى وقد قَرَّبتُ مُرتحِلاً ... يا ربِّ جنبْ أبى الأوصابَ والوجَعَا

عليكِ مثلُ الذى صلَّيتِ فاغتمضى ... نوماً فإن لجنب المرء مضطَجَعَا

فإذا كان الدعاء صلاة لغة ، وجاء كذلك فى الكتاب والسنة ، عُلِم بذلك أن قول الله تعالى : « قل إن صلاتى ونُسُكى ومَحْياىَ ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له » يتناول الدعاء . ولا ريب أن الصلاة الشرعية تتضمن الدعوات الواجبة ، والتحقيق أنها سميت صلاة لاشتمالها على نوعى الدعاء : دعاء المسألة ، ودعاء العبادة ، فلا تخرج عنهما ، كما سيأتى تقريره إن شاء الله تعالى .

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالإكثار من الدعاء فى السجود ، فقال : « فأما الركوع فعظّموا فيه الرب تعالَى ، وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء ، فقَمِنٌ أن يُستجاب لكم » . قال النووىُّ فى شرح مسلم : (اختلف العلماء فى أصل الصلاة ، فقيل هى الدعاء ، لاشتمالها عليه . وهذا قول جماهير أهل العربية

والفقهاء وغيرهم » . انتهى . وهذا هو الذى قرره العلامة ابن القَيِّم رحمه الله ، كما سيأتى . فإذا كانت الصلاة قد اشتملت على الدعاء ، فلا ريب أنه عبادة ، وقد اشتملت على التكبير والتسبيح ، وهو عبادة أيضا .

ولا يرتاب مسلم أن التكبير والتسبيح لا يجوز أن يستعمل فى حقِّ غير الله — ، لكونه من خصائص الربوبية ، فكذلك الدعاء ، ولا فرق ؛ فتدبر هذا وما قبله من الأدلة على ذلك ، فاعتبروا يا أُولى الأبصار .

قال العلامة ابن القيِّم رحمه الله تعالى ، فى معنى قوله تعالى « ادعوا ربكم تضرعاً وخُفْية » يتضمن نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة ، متضمِّن لدعاء العبادة ، لهذا أمر بإخفائه و إسراره . وقوله « و إذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ » يتناول نوعى الدعاء ، و بكل منهما فُسِّرت الآية : قيل أعطيه إذا سألنى ، وقيل أثيبه إذا عبدنى ، والقولان متلازمان ، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك فى معنييه ، أو حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة ، المتضمنة للأمرين جميعا . فتأمله ، فإنه عظيم النفع .

وهذا التقدير يأتى فى مسألة الصلاة ، وأنها نُقِلَت عن مسماها فى اللغة ، وصارت حقيقة شرعية منقولة ، أو استعملت فى هذه العبادة مجازا ، بالعلاقة بينها و بين المسمَّى اللغوىّ ، فضُم إليها أركان وشرائط ، وعلى ما قررناه ، لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلِّىَ من أول صلاة إلى آخرها ، لاينفك عن دعاء ؛ إما دعاء عبادة وثناء ، أودعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . انتهى ملخصا .

وفسر القنوت بالدعاء فى قوله تعالى : « وقوموا لله قانتين » . قال فى شرح التقريب : والقنوت : يطلق بإزاء معان ، قيل الطاعة ، وقيل الدعاء ، و بمعنى طول القيام ، و بمعنى السكوت فى الصلاة .

قال القاضى عِياض : وأصله الدوام على الشىء .

قال ابن دقيق العِيد : وإذا كان هذا أصلَه ، فمديم الطاعة قانت ، وكذلك الداعى ، والقائم فى الصلاة ، والمخلِص فيها ، والساكت فيها ، كلهم فاعلون للقنوت . انتهى ملخصًا .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : العبادة ، اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه ، من الأقوال ، والأعمال الظاهرة والباطنة . انتهى .

وقد تقدم ما يدل على أن الله تعالى يرضى من عبده أن يسأله حاجته ، وأمره بذلك ، ووعده عليه بالاستجابة ، فإذا كان الدعاء عبادة ، فقد أمر الله عباده بعبادته وحده ، كما قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه » ، وقال : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » ، « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . والإله هو الذى تألَهه القلوب وتعبده ، بأى نوع كان من أنواع العبادة ، وهو الذى فُسِّر به اسمه الله .

قال أبو جعفر محمدُ بن جرير رحمه الله : الله : مشتق من الإله ، سقطت الهمزة التى هى فاء الاسم ، فالتقت اللام التى هى عين الاسم ، واللام الزائدة ، وهى ساكنة ، فأدغمت فى الأخرى ، فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشدّدة . وأما تأويله فإنه على ما رُوِى لنا عن ابن عباس : هو الذى يَأْلَهه كل شىء ، و يعبده كل خَلْق . وساق بسنده عن ابن عباس قال : الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . انتهى .

وقال الزمخشرىّ : الله : أصله الإله ، فحذفت الهمزة ، وعوض منها حرف التعريف ، ولذلك قيل فى النداء : يا إله . والإله : من أسماء الأجناس كالرجل والفرس ، اسم يقع على كل معبود ، بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق . انتهى . .

وفى القاموس : « أَلَهَ إلاهةً وأُلوهةً ، وأُلوهيةً ، عبد عبادة ، ومنه لفظ الجلالة ، وأصله إِلَاهٌ كفِعال ، بمعنى مألوه ، فكل ما اتخذ معبودا إلهٌ عند متَّخذه . والتألُّه : التنسك والتعبد ، والتأليه : التعبيد » . انتهى .

فتبين مما تقرر أن من دعا ميتا أو غائبا ، فقد اتخذه معبودا بدعائه ، ورغبته إليه ، ورجائه له ، وإقباله عليه ، دون من له الأمر كله ، والقدرة التامة ، والمشيئة النافذة ، والعلم بما كان وما يكون ، وما لم يكن كيف يكون لو كان ، « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » !

فصل

قال العراقىّ : « نعم صرح فقهاء الحنابلة بكراهة طلب الحاجات من الأموات كراهةَ تنزيه ، على وجه مخصوص ، وهو طلبها بالكتابة ، ودس الورق فى أنقاب القبر ، قال : وقد ذكر ذلك ابن مُفْلح فى الفروع ، وفسَّرها بما ذكرته ، ونص عبارته عن الفنون ، قال — يعنى ابن عَقِيل — : ويكره استعمال النِّيران ، والتبخير بالعود ، والأبنية الشاهقة القِباب ، سَمَّوا ذلك مَشْهَدا ، واستشفوا بالتربة من الأسقام ، وكتبوا إلى التربة الرقاع ، ودسوها فى الأنقاب ، فهذا يقول : جِمالى قد جَرِبت ، وهذا يقول أرضى قد أَجْدَبت ، كأنهم يخاطبون حيّا ، ويدعون إلها » . انتهى .

قال العراقىّ : « فانظر إلى حكمه فى هذه الأشياء بالكراهة التنزيهية ، مع قوله : « كأنهم يخاطبون حَيّا ويدعون إلها » .

أقول : سبحان مُقَلِّب القلوب ، فههنا تُسْكَب العَبرات ! انظر إلى تلبيس هذا الضالّ ، واجتهاده فى الدعوة إلى الشرك بالواحدِ المتعال . ولنذكر كلام

ابن عقيل فى الفنون ، على وجهه الذى نقله عنه صاحب الفروع . قال فى الفروع وفى الفنون : «لا تُخَلَّق القبور بالخلوق ، والتزويق ، والتقبيل لها ، والطواف بها ، والتوسل بهم إلى الله » . قال : « ولا يكفيهم ذلك حتى يقولوا : « بالسر الذى بينك و بين الله » وأى شىء من الله يسمى سرا بينه و بين خَلْقه » . قال : «و يكره استعمال النيران» إلى آخر ما نقله العراقىّ . فانظر كيف ترك أول الكلام لمصادمته لغرضه ، وسقوطه على علته ومَرَضه . وانظر إلى كلام ابن عَقيل ، وتصريحه بالنهى عن التوسل ، إلى آخر كلامه ، يتبين لك أن الله قد أضل هذا وأعماه ، وأقماه فى هُوَّة هواه ، وليس هذا بأول قارورة كسرت فى الإسلام منه ومن أمثاله .

ولابن عقيل رحمه الله كلام أصرح من هذا الذى ذكره صاحب الفروع عنه . قال أبو الوفاء بن عَقيل : لما صَعُبت التكاليف على الجهال والطَّغام ، عدلوا عن أوضاع الشرع ، إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم ، فسهُلَت عليهم ، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم . قال : وهم عندى كفار بهذه الأوضاع ، مثل تعظيم القبور ، و إكرامها بما نهى عنه الشرع : من إيقاد السُّرُج وتقبيلها ، وتخليقها ، وخطاب الموتى بالحوائج ، وكَتْب الزِّقاع فيها : يا مولاى افعل بى كذا وكذا ، وأخذ تربتها تبركا ، و إفاضة الطيب على القبور ، وشدّ الرحال إليها ، و إلقاء الخِرَق على الشجر ، اقتداءً بمن عبد اللَّاتَ والعُزَّى ، والويل عندهم لمن لم يقبل مَشْهَد الكف ، ولم يتمسح بالآجُرّ يوم الأربعاء ، ولم يقل الحمالون على جنازته : أبو بكر الصديق ، أو محمد ، أو علىّ ، ولم يعقد على قبر أبيه أزَجًا بالجص والآجر ، ولم يخرق ثيابه إلى الذيل ، ولم يُرِق ماء الورد على القبر . انتهى كلامه .

فانظر إلى تصريحه بكفر فاعل هذه الأمور ، وهذا المُلْبِس يقول : إنه مكروه عنده كراهة تنزيه ، إذا كان طلب الحوائج من الأموات بالكتابة

ونحوها . فأما طلب الحوائج من الأموات باللسان ، فمستحب عنده . فسبحانَ من مسخ عقله ، وأظهر تلبيسه وجَهلَه !

ويشبه هذا ما حُكى أن رجلا اجتمع بامرأة ليزنىَ بها ، فلما جامعها قال لها : أسترى وجهك ، فإن النظر إلى وجه الأجنبية حَرَام .

قوله : صرح فقهاء الحنابلة بكراهة طلب الحاجات من الأموات والغائبين . . . إلى آخره .

جوابه أن يقال : بل صرح فقهاء الحنابلة وغيرهم بإنكاره والنهى عنه ، وأن ذلك هو الشرك الأكبر ، وأنه كفعل عابدى الأصنام ، كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها . ونحن نذكر من كلامهم قليلا من كثير ، وغَيْضا من فَيْض ، وقد تقدم بعض ذلك من كلام الله وكلام رسوله ، ولا بد من ذكر ما تيسر من كلام العلماء .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : من جعل بينه وبين الله وسائط ، يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم ، كفر إجماعا . ونقل عنه ذلك أئمة الحنابلة : كصاحب الفروع ، وصاحب الإنصاف ، وصاحب الإقناع .

وقال الإمام أبو العباس بن تيمية رحمه الله تعالى ، فى رسالته السُّنِّية ، لما تكلم على حديث الخوارج : فإذا كان فى زمن النبيِّ صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، ممن انتسب إلى الإسلام ، مَنْ قد مَرَق من الدين ، مع عبادته العظيمة ، فليُعلَمَ أن المنتسب إلى الإسلام فى هذا الزمان ، قد يمرُق أيضا ، وذلك بأمور ، منها :

الغلوُّ الذى ذمه الله ، كالغلو فى بعض المشايخ ، كالشيخ عَدِىّ ، بل الغلو فى علىّ بن أبى طالب ، بل الغلو فى المسيح ، فكل من غلا فى نبىّ أو رجل

صالح ، وجعل فيه نوعا من الإلهية ، مثل أن يدعوه من دون الله ، بأن يقول : يا سيدى فلان أغثنى ، وأنا فى حسبك ، فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه ، فإن تاب و إلا قتل ؛ فإن الله أرسل الرسل ، وأنزل الكتاب ، ليعبد وحده ، ولا يُجعل معه إله آخر ، والذين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، مثل الملائكة والمسيح وعُزير ، والصالحين أو قبورهم ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق أو ترزق ، وإنما كانوا يدعونهم ، يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله الرسل تنهى أن يُدعَى أحد من دونه ، لادعاء عبادة ، ولا دعاء استغاثة . انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله : ومن أنواع الشرك : طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم. وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولاضرا ، فضلا عمن استغاث به ، وسأله أن يشفع له ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، فإنه لايقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه . قال بعض المحققين : فلو جاز طلب الشفاعة من الميت والغائب ، لما صار لنفى الشفاعة فى القرآن معنى ، كقوله تعالى : « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولاخُلَّةٌ ولاشفاعة » . « مالهم من دونه ولى ولاشفيع » . « واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولاهم ينصرون » . فلا يظهر الفرق بين الشفاعة المنفية فى هذه الآيات ونحوها ، والمثبتة كما فى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » . «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » . « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » .

فلا يظهر الفرق إلا أن المنفية هى التى تطلب من غير الله ويرغب فيها إلى غيره ؛ والمثبتة هى التى لا تطلب إلا من الله وحده ، وهو الإخلاص الذى

لا يُرْضَى من العبد سواه ، كما تقرر فى كلام العلماء . قال ابن القيم : والله تعالى لم يجعل استغاثته بغيره ، وسؤاله لغيره ، سببا للإذن في الشفاعة ، وإنما السبب كمال التوحيد . فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان فى حاجة بما يمنع حصولها ، وهذه حالة كل مشرك ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات ، وهم تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه الموحدين له ، بذمهم وعيبهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ، وظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء أعداء الرسل فى كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم .

وما نجا من شَرَك هـذا الشِّرْك الأكبر ، إلا من جَرّد توحيده لله ، وعادى المشركين فى الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله ، واتخذ اللهَ وحده وليه ومعبوده ، فجرد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجاءه وذله لله ، وتوكله على الله ، واستعانته بالله ، والتجاءه إلى الله ، واستغاثته بالله ، وأخلص قصده لله ، متبعا لأمره ، متطلبا لمرضاته ، إذا سأل سأل الله ، وإذا عمل عمل لله ، فهو لله ، وبالله ، ومع الله . انتهى كلامه .

قال الشيخ صُنْعُ الله الحلبيّ الحنفيّ ، فى كتابه فى الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفا فى الحياة وبعد الممات ، على سبيل الكرامة . « هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن الأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم ، ويُستغاث بهم فى الشدائد والبَليات ، وبهمتهم تكشف المهمات ، فيأتون قبورهم ، وينادونهم فى قضاء الحاجات ، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات . وقالوا منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة ، وأربعون وأربعة . والقطب هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس ، وجوزوا لهم

الذبائح والنذور ، وأثبتوا لهم فيهما الأجور » . قال : « وهذا كلام فيه تفريط وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدىّ ، والعذاب السرمدىّ ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالف لعقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة ، وفى التنزيل : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين ، نولّه ماتولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا)» .

ثم قال : «فأما قولهم إن للأولياء تصرفا فى حياتهم و بعد الممات ... ، فيرده قوله تعالى : « أإله مع الله » ؟ . « ألا له الخلق والأمر » . « لله ملك السماوات والأرض » ، ونحوه من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير ، والتصرف والتقدير ، ولا شىء لغيره فى شىء بوجه من الوجوه ، فالكل تحت مَلَكه وقَهْره ، تصرفا و مِلْكا ، و إحياء وإماتة وخلقا . وتمدح الرب تعالى بملكه فى آيات من كتابه ، كقوله : «هل من خالق غير الله» ؟ . « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » وذكر آيات فى هذا المعنى . ثم قال : فقوله فى الآيات كلها « مِنْ دُونِه » : أى من غيره ، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولى وشيطان تستمده ، فإن من لم يقدر على نصر نفسه فكيف غيره ؟ إن هذا القول وخيم ، وشرك عظيم » إلى أن قال : « وأما القول بالتصرف بعد الممات ، فهو أشنع وأبدع من القول فى التصرف فى الحياة . قال جل ذكره « إنك ميت و إنهم ميتون» . وقال : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت » . . . الآية « كل نفس ذائقة الموت » . « كل نفس بما كسبت رهينة » .

وفى الحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » ... الحديث ، فجميع ذلك وما هو نحوه ، دالّ على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسكة

وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدلّ ذلك أن ليس للميت تصرف في ذاته ، فضلا عن غيره ، فإذا عجز عن حركة نفسه ، فكيف يتصرف في غيره . فإن الله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون إن الأرواح مطلقة متصرفة ، « قل أأنتم أعلم أم الله » ؟

قال : « وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من المكرمات ، فهو من المغالطة ، لأن الكرامة شيء من عند الله ، يكرم بها أولياءه ، لا قصد لهم فيه ولا تحدِّيَ ولا علم ، كما في قصة مريم بنة عمران ، وأُسَيْد بن حُضَير ، وأبي مسلم الخولانيّ » .

قال : « وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد ، فهذا أقبح مما قبله ، وأبدع لمصادرته قوله : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله » ؟ « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ؟ وذكر آيات في هذا المعنى ، ثم قال : « فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير ، فهو المنفرد بذلك ؛ فإذا تعين هو جل ذكره ، خرج غيره من ملك ، ونبي ، وولي » .

قال : « والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية ، من الأمور الحسية : في قتال ، أو إدراك عدوّ ، أو سبع ونحوه ، كقولهم « يالَزَيد » « يا للمسلمين » بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل . وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير ، أو في الأمور المعنوية من الشدائد : كالمرض وخوف الغرق والضيق ، والفقر وطلب الرزق ونحوه ، فمن خصائص الله ، لا يطلب فيها غيره » .

قال : « وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم ، كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال ، وينادونهم و يستنجدون بهم ، فهذا من المنكرات . فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولّي أو رُوح أو غير ذلك في كشف كربة ، أو قضاء حاجة ، تأثير ، فقد وقع في وادي جهل خطير ، على شفا حفرة

من السعير ، وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة . فهذا ظن أهل الأوثان ، كذا أخبر الرحمن : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون » ؟ فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر ، من نبى ، وولى وغيره ، على وجه الإمداد منه ، إشراك مع الله ، إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خير إلا خيره .

قال : « وأما ما قالوه إن منهم أبدالا ونقباء ، وأوتادا ونجباء ، وسبعين وسبعة ، وأربعين وأربعة ، والقطب هو الغوث للناس . فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضى المحدّث فى سراج المريدين ، وابن الجوزىّ وابن تيمية » انتهى باختصار .

وقال ابن عطية فى قوله تعالى : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك » (الآيات ؛ معناه : قيل لى ولا تدع ، فهو عطف على أقم . وهذا الأمر والمخاطبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، إذا كان هكذا ، فأحرَى أن يتخذ من ذلك غيره ، والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو عام للأمة) .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير فى هذه الآية : (يقول تعالى ذكره ولا تدع يامحمد من دون معبودك وخالقك شيئا ، لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك فى دين ولا دنيا ؛ يعنى بذلك الآلهة يقول تعبدها راجيا نفعها ، أو خائفا ضرها ، فإنها لا تنفع ولا تضر ، فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ، فإنك إذا من الظالمين . يقول : من المشركين بالله) . انتهى .

وهذه الآية لها نظائر كقوله : « فلا تدع مع الله إلها آخر ، فتكون من المعذبين» وقوله : «ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو » . فى هذه الآيات

بيان أن كل مدعوٍّ يكون إلها ، والإلهية حق لله ، لا يصلح منها شيء لغيره ، ولهذا قال : « لا إله إلا هو » ، كما قال تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير » .

وقال الشيخ قاسم الحنفي ، في شرح درر البحار : [النذْر الذي يَنْذُره أكثر العوام ، على ما هو مشاهد ، كأن يكون لإنسان غائب أو مريض ، أو له حاجة ، فيأتي إلى بعض الضُّلَحاء ، ويجعل على رأسه سُترة ويقول : يا سيدي فلان ، إن رد الله غائبي ، أو عُوفيَ مريضي ، أو قضيت حاجتي ، فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة أو من الطعام كذا ، أو من المال كذا ، أو من الشمع والزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالإجماع ، لوجوه ، منها :

أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق .

ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك .

ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر .

إلى أن قال : إذا علمت هذا ، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ، وينقل إلى ضرائح الأولياء ، تقربا إليهم ، فحرام بإجماع المسلمين .

نقله عن ابن نجيم في البحر الرائق ، ونقله المرشديّ في تذكرته ، وغيرهما عنه ، وزاد : « وقد ابتُلي الناس بهذا ، ولا سيما في مولد البدويّ » . انتهى .

وقال العلامة أحمد الروميّ الحنفيّ في كتابه المسمى « بمجالس الأبرار » بعد كلام سبق في الكلام على زيارة القبور : « فإذا كان كذلك ، فاللائق بالزائر أن يتّبع السنة ، ويقف عندما شُرِع له ولا يتعداه ، ليكون الزائر محسناً إلى نفسه ، وإلى أهل القبور ، لأن زيارة القبور نوعان :

زيارة شرعية ، وزيارة بِدْعية . أما الزيارة الشرعية التى أَذِن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمقصود منها شيئان : أحدهما راجع إلى الزائر ، وهو الاتعاظ والاعتبار . والثانى راجع إلى أهل القبور ، وهو أن يسلِّم الزائر عليهم ، ويدعوَ لهم .

وأما الزيارة البِدْعية فهى زيارة القبور ، وهو لأجل الصلاة عندها ، والطواف بها ، وتقبيلها واستلامها ، وتعفير الخدود عليها ، وأخذ ترابها ، ودعاء أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية والولد ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللَّهَفات ، وغيرَ ذلك من الحاجات التى كان عباد الأصنام يسألونها من أصنامهم ؛ فإن أصل هذه الزيارة البدعية الشِّرْكية مأخوذ منهم ، وليس شىء من ذلك مشروعا باتفاق المسلمين ، إذ لم يفعله رسول رب العالمين ، ولا أحد من الصحابة والتابعين ، وسائر أئمة الدين ، بل قد أنكر الصحابة ما هو دون ذلك بكثير ، كما رُوِى عن المعرور ابن سُوَيْد ، أن عمر صلّى صلاة الصبح فى طريق مكة ، ثم رأى الناسَ يذهبون مذاهب ، فقال أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل مسجد صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يصلون فيه ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ، ويتخذونها كنائس وبِيَعا ، فمن أدركته الصلاة فى هذه المساجد ، فليصلها فيها ، ومن لا ، فليمض ولا يتعمدها . وكذلك لما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التى بويع تحتها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أرسل إليها فقطعها . فإذا كان عمر فعل هذا بالشجرة التى بايع الصحابة تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرها الله تعالى فى القرآن حيث قال : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » ، فماذا يكون حكمه فيما عداها ؟ ولقد جرد السلف الصالح التوحيد ، وحموا جانبه ؛ حتى

كانت الصحابة والتابعون حيث كانت الحُجْرة النبوية منفصلة عن المسجد إلى زمن الوليد بن عبد الملك ، لا يدخل فيها أحد ، لا لصلاة ولا لدعاء ولا لشيء آخر ، مما هو من جنس العبادة ، بل كانوا يفعلون جميع ذلك فى المسجد . وكان أحدهم إذا سلم على النبى عليه السلام وأراد الدعاء ، استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر ، ثم دعا . وهذا مما لا نزاع فيه بين العلماء ، وإنما نزاعهم فى وقت السلام عليه .

قال أبو حنيفة : يستقبل القبلة عند السلام أيضا ، ولا يستقبل القبر . وقال غيره : لا يَستقبل القبر عند الدعاء ، بل قالوا إنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ، ولا يستقبل القبر ، حتى لا يكون الدعاء عند القبر ، فإن الدعاء عبادة ، كما ثبت بالحديث المرفوع : « إن الدعاء هو العبادة » ، والسلف الصالح من الصحابة والتابعين جعلوا العبادة خالصة لله تعالى ، ولم يفعلوا عند القبور شيئا منها ، إلا ما أذِن فيه النبى عليه الصلاة والسلام ، من السلام على أصحابها ، وسؤال الرحمة والمغفرة والعافية من الله لهم . وسبب ذلك أن الميت قد انقطع عمله ، وهو يحتاج إلى من يدعو له ، ويشفع لأجله . ولهذا شُرِع فى الصلاة عليه وجوبا أو ندبا ، ما لم يُشْرَع مثله فى الدعاء للحىّ ، فإنا لما كنا إذا قمنا إلى جنازته ندعو له ، ونشفَعُ له ، فبعد الدفْن أولى أن ندعو له ونشفع ، لأنه فى قبره بعد الدفن أشد احتياجًا إلى الدعاء ، منه على نعشه ، لأنه حينئذٍ معرَّض للسؤال وغيره ، على ما رُوِى عن عثمان بن عفان ، أنه عليه الصلاة والصلام كان إذا فرغ من دفن الميت وقفَ عليه ، وقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل » .

ورُوِى عن سُفيان الثّورِىّ ، أنه قال : « إذا سُئل الميت : مَنْ ربك ؟

يتراءى له الشيطان فى صورة ، ويشير إلى نفسه ، أى أنا ربك » قال الترمذىّ : هذا فتنة عظيمة .

وكانوا يستحبّون إذا وُضع الميت فى اللحد ، أن يقال : اللهم أعذه من الشيطان الرجيم . فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهل القبور بضعا وعشرين سنة ، وهذه سنة الخلفاء الراشدين ، وطريقة جميع الصحابة والتابعين ، فبدّل أهل البدع والضلال قولا غير الذى قيل لهم ، فإنهم قصدوا بالزيارة التى شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم إحسانا إلى الميت ، وإلى الزائر سؤالهم الميت والاستغاثة به ، وليس هذا إلا الفتنة التى قال فيها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كيف إذا لبستكم فتنة يَهْرَم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير ، تجرى على الناس ، يتخذونها سنة ، إذا غُيرت قيل غيرت السنة .

قال : وقال ابن القيم فى إغاثته :

هذا يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا اعتبار ولا التفات إليه . وقد جرى العمل على خلاف السنة منذ زمن طويل ، فإذَنْ لابد أن تكون شديد التوقّى من مُحْدَثات الأمور ، وإن اتفق عليه الجمهور ، فلايغرنك إطباقهم على ما حدث بعد الصحابة ، بل ينبغى لك أن تكون حريصا على التفتيش عن أحوالهم وأعمالهم ، فإن أعلم الناس وأقربهم إلى الله ، أشبههم بهم ، وأعلمهم بطريقتهم ، إذ عنهم أُخِذ الدين ، وهم أصول نقل الشريعة من صاحب الشرع ، فلابد لك أن لاتكترث بمخالفتك لأهل عصرك ، فى موافقتك لأهل عصر النبي عليه السلام ، إذ قد جاء فى الحديث : « إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم » .

قال عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك به قليلا ، والمخالف

له كثيرا ، إلا أن الحق ما كان عليه الجماعة الأولى ، وهم الصحابة ، ولا عِبرة إلى كثرة الباطل بعدهم .

وقد قال الفُضَيل بن عِياض مامعناه : «الزم طريق الهدى ، ولايضرك قلة السالكين ، و إياك وطرق الضلالة ، ولاتغتر بكثرة الهالكين» انتهى كلامه .

وقال العلامة الرومى أيضا ، فى المجلس السابع عشر ، فى عدم جواز الصلاة عند القبور ، والاستمداد من أهلها ، واتخاذ السُّرُج والشموع عليها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . هذا الحديث من صحاح المصابيح . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

قال بعض المحققين : والصلاة فى المواضع المتبركة من مقابر الصالحين ، داخلة فى هذا النهى ، لا سيما إذا كان الباعث عليها تعظيم هؤلاء ، لما فى ذلك من الشرك ، فإن مبتدأ عبادة الأصنام ، كان فى قوم نوح النبى عليه السلام ، من جهة عكوفهم على القبور ، كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله : « قال نوح : رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كُبَّاراً وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولاتذَرُنَّ وَدًّا ولاسُواعًا ولا يَغوثَ و يَعُوقَ ونَسْرًا ».

قال ابن عباس وغيره من السلف : كان هؤلاء قوماً صالحين فى قوم نوح النبى عليه السلام ، فلما ماتوا عكف الناس على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم . وهذا هو مبتدأ عبادة الأصنام . قال : وقال ابن القيم فى إغاثته ، نقلا عن شيخه : إن هذه العلة التى لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ القبور مساجد ، هى التى أوقعت كثيراً من الناس : إما فى الشرك

الأكبر، أو فيما دونه من الشرك ؛ فإن الشرك بقبر الرجل الذى يُعتَقَد صلاحه ، أقرب إلى النفوس من الشرك بشجر أو حجر . ولهذا تجد كثيرا من الناس عند القبور يتضرعون ويخشعون ، ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلون مثلها فى بيوت الله تعالى ، ولا فى السَّحَر ، ويرجون من بركة الصلاة عندها ، والدعاء لديها ، ما لا يرجون فى المساجد ، فلحسم مادة هذه المفسدة ، نهى عليه السلام عن الصلاة فى المقبرة مطلقا و إن لم يقصد المصلى بصلاته فيها بركة البقعة ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ، ووقت غروبها ، ووقت استوائها ، لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة للشمس فيها ، فنهى أمته عن الصلاة فيها ، و إن لم يقصدوا ما قصده المشركون . و إذا قصد الرجل الصلاة عند المقبرة تبركا بالصلاة فى تلك البقعة ، فهذا عين المحادَّة لله ورسوله ، والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى ، فإن العبادات مبناها على الاستنان والاتباع ، لا على الأهواء أو الابتداع . فإن المسلمين أجمعوا على ما علموه من دين نبيهم ، أن الصلاة عند المقبرة منهىّ عنها ، لأن فتنة الشرك بالصلاة فيها ، ومشابهة عبادة الأصنام ، أعظم كثيرا من مفسدة الصلاة عند طلوع الشمس ، وحين غروبها ، وحين استوائها ، فإنه عليه السلام لما نهى عن تلك المفسدة سدا لذريعة التشبه ، التى لا تكاد تخطر ببال المصلى ، فكيف بهذه الذريعة التى كثيرا ما تدعو صاحبها إلى الشرك بدعاء الموتى ، وطلب الحوائج منهم ، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم ، أفضل من الصلاة فى المساجد ، وغير ذلك مما هو محادَّة ظاهرة لله تعالى ولرسوله .

قال : وقال ابن القيم فى إغاثته : « من جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبور ، و بين ما أمَر به ونَهَى عنه ، وما كان عليه الصحابة والتابعون ، و بين ما عليه أكثر الناس اليوم ، رأى أحدهما مضادا للآخر ،

ومناقضا له بحيث لا يجتمعان أبدا » ... إلى أن قال : « وقد آل الأمر بهؤلاء الضالين المضلين ، إلى أن شرعوا للقبور حَجًّا ، و وضعوا له مناسِك ، حتى صنف بعض غُلاتهم فى ذلك كتابا ، وسماه (مناسك حجّ المشاهد) تشبيها منه للقبور بالبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول فى دين عباد الأصنام ، فانظر إلى ما شرعه النبى عليه السلام فى القبور من النهى ، و بين ما شرعه هؤلاء وما قصدوه ، من التباين العظيم . ولا ريب أن فى ذلك من الفساد ما يعجز الإنسان عن حصره ، منها : تعظيمها المُوقِع فى الافتتان بها . ومنها تفضيلها على المساجد ، التى هى خير البقاع ، وأحبها إلى الله ، فإنهم إذا قصدوا القبور ، يقصدونها مع التعظيم والاحترام ، والخشوع ورقة القلب وغير ذلك ، مما لا يفعلونه فى المساجد ، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا مثله . ومنها اتخاذ المساجد والسُّرُج عليها ، ومنها العكوف عندها ، وتعليق الستور عليها ، واتخاذ السَّدَنة لها ، ومنها النذْر لها ولسدنتها ، ومنها زيارتها لأجل الصلاة عندها ، والطواف بها وتقبيلها ، واستلامها ، وتعفير الخدود عليها ، وأخذ ترابها ، ودعاء أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق ، والعافية والولد ، وقضاء الديون ، وتفريج الكُرُبات ، وغير ذلك من الحاجات ، التى كان عُبّاد الأوثان يسألونها من أوثانهم ، وليس شىء منها مشروعا باتفاق أئمة المسلمين ، إذ لم يَفْعل منه شيئا رسول رب العالمين ، ولا أحد من الصحابة والتابعين ، وسائر أئمة الدين . ومن المحال أن يكون شىء منها مشروعا وعملا صالحا ، ويُصْرَفَ عنه القرون الثلاثة التى شهد فيهم النبى عليه السلام بالصدق والعدل ، ويظفرَ به الخُلوفُ الذين شهد فيهم النبى عليه السلام بالكذب والفسق .

فمن شك فى هذا ، فلينظر هل يمكن بشَرا على وجه الأرض أن يأتىَ عن أحد منهم بنقل صحيح أو ضعيف ، أنهم كانوا إذا بدت لهم حاجة قصدوا القبور ،

فدعوا عندها ، وتمسحوا بها ، فضلا أن يصلُّوا عندها ، أو يسألوا حوائجهم منها . كلا ، لا يمكنهم ذلك ، بل إنما يمكنهم أن يأتوا بكثير من ذلك عن الخلوف التى خلفت من بعدهم . ثم كلما تأخر الزمان وطال العهد ، كان ذلك أكثر ، حتى وجدت من ذلك عدة مصنفات ، ليس فيها عن النبى عليه السلام ، ولا عن خلفائه الراشدين ، ولا عن الصحابة والتابعين ، حرف واحد ، بل فيها من خلاف ذلك كثير من الأحاديث المرفوعة ، التى من جملتها قوله عليه السلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فمن أراد أن يزور فليزر ، ولا تقولوا هُجْرا : أى فحشا » .

وأى فحش أعظم من الشرك عندها قولا وفعلا ، إلى أن قال : «فإن غلاة متخذيها عيدا إذا رأوها من مكان بعيد ، ينزلون عن دوابِّهم ، ويكشفون رءوسهم ، ويضعون جباههم على الأرض ، ويُقبِّلون الأرض . ثم إنهم إذا وصلوا إليها يصلون عندها ركعتين ، ثم ينتشرون حول القبر طائفين به ، تشبيها بالبيت الحرام ، الذى جعله الله تعالى مباركا وهدى للأنام . ثم يأخذون فى التقبيل والاستلام ، كما يفعل الحجاج فى المسجد الحرام ، ثم يعفِّرون جباههم وخدودهم ، ثم يكملون مناسك حج القبر بالحلق والتقصير ، ثم يقربون لذلك الوثن القرابين ، فلا يكون صلاتهم ونسكهم وقربانهم وما يراق هناك من العبرات ، ويرفع من الأصوات ، ويطلب منه من الحاجات ، ويسأل من تفريج الكربات ، وإغناء ذوى الفاقات ، ومعافاة أولى العاهات والبليات ، لله تعالى ، بل للشيطان . فإن الشيطان لبنى آدم عدوّ مبين ، يصدهم بأنواع مكايده عن الطريق المستقيم .

ومن أعظم مكايده ، ما نصبه للناس من الأنصاب ، التى هى رجس من عمل الشيطان ، وقد أمر الله المؤمنين باجتنابها ، وعلَّق فلاحهم بذلك الاجتناب ،

فقال : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

فالأنصاب : جمع نُصُب بضمتين ، أو جمع نَصْب بالفتح والسكون ، وهو كل ما نُصب وعبد من دون الله تعالى ، من شجر ، أو حجر أو قبر ، أو غير ذلك ؛ والواجب هدم ذلك كله ، ومحو أثره ، كما أن عمر لما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بويع تحتها النبي عليه السلام ، أرسل إليها فقطعها » .

ثم ذكر حديث أبي واقد الليثي ، قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنَين ، ونحن حُدَثاء عهد ، وللمشركين سِدْرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم وأمتعتهم ، يقال لها ذات أنواط . فمررنا بسدرة ، فقلنا : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر ، إنها السُّنَن ، قلتم والذي نفسي بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . لتركَبُنَّ سَنَن من كان قبلكم » .

فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها ، اتخاذ إله مع الله تعالى ، مع أنهم لا يعبدونها ، ولا يسألونها شيئا ، فما الظن بغيرها مما يقصده الناس ، من شجر ، أو حجر أو قبر ، ويعظمونه ويرجون منه الشفاء ، ويقولون إن هذا الشجر أو هذا الحجر ، أو هذا القبر ، يقبل النذْر الذي هو عبادة وقربة ، ويتمسحون بذلك النُصُب ويستلمونه ، وهذا الشيطان في كل حين وزمان ينصب لهم قبر رجل معظَّم يعظمه الناس ، ثم يجعله وَثَنا يعبد من دون الله تعالى ، ثم يوحي إلى أوليائه : أن من نَهَى عن عبادته ، وعن اتخاذه عيدا ، وعن جعله وثنا ، فقد تنقصه وهضم حقه ، فيسعى الجاهلون في قتله وعقوبته ويكفرونه ، وما ذنبه إلا أنه أمر بما أمر به الله تعالى ورسوله ، ونهى عما نهى الله تعالى ورسوله عنه .

والذى أوقع عُباد القبور فى الافتتان بها أمور ، منها :

الجهل بحقيقة مابعث الله تعالى به رسوله من تحقيق التوحيد ، وقطع أسباب الشرك ، فالذين قل نصيبهم من ذلك ، إذا دعاهم الشيطان إلى الفتنة بها ، ولم يكن لهم مايبطل دعوته ، استجابوا له بحسب ماعندهم من الجهل ، وعصموا منه بقدر ما عندهم من العلم .

ومنها أحاديث مكذوبة ، وضعها على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشباهُ عُباد الأصنام من المَقابِرية ، وهى تناقض ماجاء به من دينه ، كحديث : « إذا تحيرتم فى الأمور ، فاستعينوا من أهل القبور » ، وحديث : « إذا أعيتكم الأمور ، فعليكم بأصحاب القبور » ، وحديث : « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه » . وأمثال هذه الأحاديث التى هى مناقضة لدين الإسلام ، وضعها أشباه عباد الأصنام من المَقابرية ، وراجت على الجهال والضلال ، والله تعالى إنما بعث رسوله لقتال من حَسُن ظنه بالأحجار والأشجار ، فإنه عليه السلام جنب أمته من الفتنة بالقبور بكل طريق .

ومنها : حكايات حُكِيت عن أهل تلك القبور ، أن فلانا استغاث بالقبر الفلانىّ فى شدة ، فخلص منها ، وفلان نزل به ضُرّ فاستدعى صاحب ذلك القبر ، فكشف ضره ، وفلان دعاه فى حاجة ، فقضيت حاجته ، وعند السَّدَنة والمقابرية شىء من ذلك يطول ذكره ، وهم من أكذب خلق الله على الأحياء والأموات ، والنفوس مُولعة بقضاء حوائجها ، وإزالة ضرورتها ، لا سيما من كان مضطرا ، يتشبث بكل سبب وإن كان فيه كراهة ، فإذا سمع أحدٌ أن قبر فلان ترياق مجرب ، يميل إليه ، فيذهب ويدعو عنده بحرقة وذلة وانكسار ، فيجيب الله تعالى دعوته لما قام به من الذلة والانكسار ، لا لأجل القبر ، فإنه لو دعا كذلك

فى الجبانة والحمام والسوق لأجابه ، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرا فى إجابة تلك الدعوة ، ولا يعلم أن الله تعالى يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرا ، فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضيا عنه ، ولا محبا له ، ولا راضيا بفعله ، فإنه يجيب دعاء البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

يسر لنا الله تعالى من الدعاء والعمل ، ما يكون موافقا لرضائه ، بلطفه وكرمه .

انتهى كلام العلامة الرومىّ رحمه الله تعالى ، ببعض اختصار .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « والله تعالى لم يجعل أحدا من الأنبياء والمؤمنين واسطة فى شىء من الربوبية والإلهية ، مثل ما يتفرد به من الخلق والرزق ، وإجابة الدعاء ، والنصر على الأعداء ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، بل غاية ما يكون العبد سبباً ، مثل أن يدعو ويشفع ، والله تعالى قال : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » ، وقال : « وكم من مَلَكٍ فى السموات لا تغنى شفاعتُهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . وقال تعالى : « ولا يأمرَكُم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر ، ولهذا كانوا فى الشفاعة على ثلاثة أقسام : فالمشركون أثبتوا الشفاعة التى هى شِرْك ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، كما يشفع عند الملوك خواصُّهم لحاجة الملوك إلى ذلك ، فيسألونهم بغير إذنهم ، ويجيب الملوك سؤالهم ، لحاجتهم إليهم . فالذين أثبتوا مثل هذه الشفاعة عند الله مشركون كفار ، لأن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل من رحمته وإحسانه إجابة دعاء الشافعين . ولهذا قال: « ما لكم من دونه ولى ولا شفيع » ،

وقال : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعا » . وقال عن صاحب يس : « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا يُنْقِذون » . ؟

وأما الخوارج والمعتزلة ، فإنهم أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم فى أهل الكبائر من أمته ، وهؤلاء مبتدعة ضُلاَّل ، مخالفون للسنة المستفيضة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولإجماع خير القرون .

القسم الثالث :

أهل السنة والجماعة ، وهم سلف الأمة وأئمتها ، ومن تبعهم بإحسان ، أثبتوا ما أثبته الله فى كتابه وسنة رسوله ، ونفوا ما نفاه ، فالشفاعة التى أثبتوها هى التى جاءت بها الأحاديث . وأما الشفاعة التى نفاها القرآن ، كما عليه المشركون والنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة ، فينفيها أهل العلم والإيمان ، مثل أنهم يطلبون من الأنبياء والصالحين الغائبين والميتين قضاء حوائجهم ، ويقولون إنهم إن أرادوا ذلك قضَوها ، ويقولون إنهم عند الله كخواص الملوك عند الملوك ، يشفعون بغير إذن الملوك ، ولهم على الملوك إدْلال يقضون به حوائجهم ، فيجعلونهم لله بمنزلة شركاء المِلك ، والله سبحانه قد نزه نفسه عن ذلك . انتهى .

ولو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشِّرْكية لطال المقام جدا . وفيما ذكرنا كفاية لطالب الهدى ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، وبالله التوفيق .

فصـــل

واستدل العراقيّ بما روى الطَّبَرانيّ ، عن ابن مسعود ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فيمن انفلتت عليـــه دابته قال : « يا عباد الله احبسوا » . وبحديث الأعمى .

والجواب أن يقال : سبحان الله ! كيف يتعلق بهذا ونحوه المشركون ، ويرومون به معارضة الحجج القاطعة من كلام من يقول للشيء كن فيكون ، وكلام رسوله الصادق المأمون ؟

ونحن بحول الله وقوته نتكلم على الحديثين ، ونبين معناهما ، ونوضح منطوقهما ومفهوماهما ، ونقطع شَغْب كل مُشرك وجداله ، ونبين باطله ومحاله ، فنقول وبالله التوفيق :

اعلم أن الله سبحانه بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى التوحيد ، والنهى عن الإشراك والتنديد ، فحمَى صلى الله عليه وسلم حِمَى التوحيد ، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ، حتى إن رجلا قال له : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحْدَه » . فكيف يأمر بدعاء الميت والغائب ؟ بل من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، أنِ دعاء الميت والغائب لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا فَعَله أحد من الصحابة والتابعين ، ولا فعله أحد من أئمة المسلمين ، ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعد موته . ولو كان هذا جائزا أو مشروعا لفعلوه ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمصار عدد كثير وهم متوافرون ، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ولا دعاه ، ولا استغاث به ولا استنصر به . ومعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعى على نقله ، بل على نقل ما هو دونه .

وحينئذٍ فلا يخلو إما أن يكون دعاء الموتى والغائبين ، أو الدعاء عند قبورهم والتوسل بأصحابها أفضل أولا . فإن كان أفضل فكيف يخفى علما وعملا على الصحابة والتابعين وتابعيهم ؟ فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة علما وعملا بهذا الفضل العظيم ، ويظفر به الخلوف علما وعملا !

وهذان الحديثان اللذان ذكرهما هذا العراقيّ : إما أن يكون الصحابة الذين رووهما وسمعوهما من النبي صلى الله عليه وسلم جاهلين بمعناهما ، وعلمه هؤلاء المتأخرون ؛ وإما أن يكون الصحابة علموهما وزهدوا فيهما عملا ، مع حرصهم على الخير ، وطاعتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم ؛ وكلاهما محال ، بل هم أعلم الناس بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطوع الناس لأوامره ، وأحرص الناس على كل خير ، وهم الذين نقلوا إلينا سنة نبينا صلى الله عليه وسلم. فهل فهموا من هذين الحديثين جواز دعاء الموتى والغائبين ، فضلا عن استحبابه والأمر به ؟ ومعلوم أنهم عرضت لهم شدائد واضطرارات ، ومِحَن وفِتَن وسِنُون مجدبات ، أفلا جاءوا إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم شاكين ؟ وله مخاطبين بكشفها عنهم ، وتفريج كُرُباتهم ؟ والمضطر يتشبث بكل سبب يعلم أن له فيه نفعا ، لا سيما الدعاء ، فلو كان ذلك وسيلة مشروعةً وعملا صالحا لفعلوه .

فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهل القبور حتى توفاه الله ، وهذه سنة خلفائه الراشدين ، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين ، هل يمكن أحدا أن يأتىَ عنهم بنقل صحيح أو حَسَن أو ضعيف ، أنهم كانوا إذا كانت لهم حاجة ، أو عرضت لهم شدة ، قصدوا القبور ، فدعوا عندها وتمسَّحوا بها ، فضلا عن أن يسألوها حوائجهم ؟

فمن كان عنده فى هذا أثر أو حرف واحد فليوقفنا عليه . نعم لهم أن يأتوا

عن الخلف الذين يقولون ما لا يفعلون ، و يفعلون ما لا يؤمرون بكثير من المختلقات ، والحكايات المكذوبات ، حتى لقد صنف فى ذلك عدة مصنفات ، ليس فيها حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إنما فيها التمويهات ، والحكايات المخترعات ، والأحاديث المكذوبات ، كقولهم « إذا أعيتكم الأمور ، فعليكم بأصحاب القبور » وحديث « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه » ، وفيها حكايات لهم عن تلك القبور ، بأن فلانا استغاث بالقبر الفلانى فى شدة ، فخلص منها ، وفلان دعاه أو دعا به فى حاجة فقضيت ، وفلان نزل به ضر فأتى صاحب ذلك القبر ، فكشف ضره ، ونحو ذلك مما يعلم أنه مضادّ لما بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ، و يعلم أنه حَمَى جانب التوحيد ، وسد الذرائع الموصلة إلى الشرك ، فكيف يستدل بكلامه على نقيض ما أمر به ؟

فأما حديث « إذا انفلتت دابة أحدكم » إلى آخره فالجواب عنه من وجهين : أحدهما أنه لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه من رواية معروف بن حسان ، وهو منكر الحديث ، قاله بن عدىّ .

الوجه الثانى : « أن يقال على تقدير صحته ، معناه أن الإنسان إذا انفلتت دابته وعجز عنها ، فقد جعل الله عبادا من الملائكة ، أو صالحى الجن ، أو ممن لا يعلمه من جنده سواه ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، فإن هؤلاء عباد لله أحياء حاضرون ، قد جعل الله لهم قدرة على ذلك كما جعل للإنس . فهذا كما إذا انفلتت دابة الإنسان ، فنادى أحد رفقته يا فلان : رد الدابة ؛ فلا بأس بهذا .

ويدل على هذا ما رواه البزّار من حديث ابن على « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لله ملائكة فى الأرض سوى الحفظة ، يكتبون ما سقط من ورق ، فإذا أصاب أحدَكم شئ بأرض فلاة ، فلينادِ : أعينونى » .

فأين هذا من الاستغاثة بأهل القبور لو كانوا يعقلون ؟ وأما حديث

الأعمى ، فنذكر بحول الله وقوته عنه من صواب الجواب ، ما يتبين به الحق ، ويزول به الارتياب ، فنقول : ذكر العلماء فى معناه قولين : أحدهما أنه توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فيدل على جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم ، إلا أن التوسل ليس فيه دعاء له ، ولا استغاثة به ، وإنما يُسْأل اللهُ بجاهه ، وهذا ذكره الفقيه أبو محمد بن عبد السلام ، فإنه أفتى بأنه لا يجوز التوسل بغير النبى صلى الله عليه وسلم . قال : وأما التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم فيجوز إن صح الحديث ، يعنى حديث الأعمى .

قال شيخ الإسلام تقىّ الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى : وما زلت أبحث وأكشف ما أمكننى من كلام السلف والأئمة والعلماء ، هل جوز أحد منهم التوسل بالصالحين فى الدعاء ، أو فعل ذلك أحد منهم ، فما وجدته . ثم وقفت على فتيا للفقيه أبى محمد بن عبد السلام ، أفتى بأنه لا يجوز التوسل بغير النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأما بالنبىّ صلى الله عليه وسلم فجوز التوسل به ، إن صح الحديث فى ذلك .

وذكر القُدورىّ فى شرح الكَرخىّ ، عن أبى حنيفة ، وأبى يوسف ، لا يجوز أن يسأل الله إلا به . انتهى كلامه .

وذكر ابن القَيِّم ، رحمه الله ، عن أبى الحسين القُدُورى نحو ذلك ، فقال : قال القُدورىّ ، قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة : لاينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك ، وأن يقـــول بحق فلان ، وبحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام . قال أبو الحسين : أما المسألة بغير الله فمنكرة ، لأنه لاحق لغير الله عليه ، وإنما الحق له على خلقـه . وأما قوله ، بمعقد العز من عرشك ، فكرهه

أبو حنيفة ، ورخّص فيه أبو يوسف ، وقال ابن بلدجى فى شرح المختار : ويكره أن يدعو الله إلا به ، ولا يقول أسألك بملائكتك أو بأنبيائك ، ونحو ذلك ، لأنه لا حق للمخلوق على خالقه . ويقول فى دعائه : أسألك بمعقد العز من عرشك . وعن أبى يوسف جوازه . ومن قواعد الحنفية أن الكراهة حيث أطلقت ، فالمراد منها التحريم . وممن ذكر ذلك ابن نُجَيم فى «البحر» ، حيث قال : وأفاد صحة إطلاق الحكم على المكروه تحريما . وذكر العلامة ابن عابدين فى « رد المحتار ، على الدر المختار » قال : وذكر محمد فى المبسوط أن أبا يوسف قال لأبى حنيفة : إذا قلتَ فى شىء أكرهه ، فما رأيك فيه ؟ قال : التحريم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فى كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » : لفظ التوسل بالشخص ، والتوجه به ، والتوسل به ، فيه إجمال واشتراك ، غَلِط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة ، يراد التسبب به ، لكونه داعيا وشافعا مثلا ، أو يكون الداعى محبا له ، مطيعا لأمره ، مقتديا به ، فيكون التسبب إما بمحبة السائل ، واتباعه له ، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويُراد به الإقسام به ، والتوسل بذاته . فهذا هو الذى كرهوه ونَهَوا عنه .

وكذلك لفظ السؤال بالشىء قد يراد به المعنى الأول ، وهو التسبب به ، لكونه سببا فى حصول المطلوب . وقد يراد به الإقسام . ومن الأول حديث الثلاثة الذين أَوَوْا إلى غار ، وهو حديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما ، فإن الصخرة انطبقت عليهم ، فقالوا ليدعُ كل رجل منكم بأفضل عمله ، فدعَوُا الله بصالح أعمالهم ، لأن الأعمال الصالحة هى أعظم ما يَتَوسل به العبد إلى الله ، ويتوجه به إليه ، ويسأله به ، وهؤلاء دعَوه بعبادته ، وفعل ما أمر به من العمل الصالح والتضرع ، وكذلك دُعاء المرأة المهاجرة التى أحيا الله ابنها

لما قالت : « اللهم إنى آمنت بك وبرسولك ، وهاجرت فى سبيلك » ، وسألت الله أن يحيي ولدها ، وأمثال ذلك وهذا ، وكما قال المؤمنون : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا » . . . الآيات ، فسُؤال الله والتوسل إليه ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

أما قوله فى حديث أبى سعيد : أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا ، فهذا الحديث رواه عَطية العَوْفِيّ ، وفيه ضعف ، لكن بتقدير ثبوته ، هو من هذا الباب ، فإن حق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق المطيعين له أن يثيبهم ، فالسؤال له والطاعة ، سبب لحصول إجابته وإثابته . فهو من التوسل به ، والتوجه به ، والتسبب به . ولو قدر أنه قسم لكان قسماً بما هو من صفاته ، فإن إجابته وإثابته من أفعاله وأقواله ، فصار هذا كقوله فى الحديث الصحيح « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك » . والاستعاذة لا تصح بمخلوق ، كما نص عليه الإمام أحمد وغيره من الأئمة ، فاستعاذ صلى الله عليه وسلم بعفوه ومعافاته من عقوبته ، مع أنه لا يُستعاذ بمخلوق ، كسؤال الله بإجابته وإثابته ، وإن كان لا يسأل بمخلوق . ومن قال من العلماء لا يُسأل اللهُ إلا به ، لا ينافى السؤال بصفاته ، كما أن الحلف لا يُشْرَع إلا بالله ، ومن حلف بغير الله فقد أشرك ، ومع هذا فالحَلِف بعزة الله ، ولعمرِ الله ونحو ذلك ، مما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم الحلف به ، لم يدخل فى الحلف بغير الله .

وأما قول بعض الناس أسألك بالله وبالرَّحم ، وقراءة من قرأ « تساءلون به والأرحام » ، فهو من باب التسبب بها ، فإن الرحم توجب الصلة ، وتقتضى أن يصل الإنسان قرابته ، فسؤال السائل بالرحم لغيره ، توسل إليه بما يوجب صلته من القرابة التى بينهما ، ليس من باب الإقسام ، ولا من باب التوسل بما لا يقتضى

المطلوب ، بل هو توسل بما يقتضى المطلوب ، كالتوسل بدعاء الأنبياء وطاعتهم . انتهى ملخصا .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضا : وأما استشفاع الناس بالنبيّ صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله ، كما كانوا فى الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم فى الاستسقاء وغيره ، وقول عمر رضى الله عنه : كنا إذا أجْدَبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، معناه : إنا نتوسل بدعائه وشفاعته ، ليس المراد به ، نقسم عليك به أو مايجرى هذا المجرى ، مما يفعل بعد موته فى مغيبه ، كما يقول بعض الناس : أسألك بجاه فلان عندك ، ويقولون : إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه ، ويروون حديثا موضوعا : إذا سألتم الله فاسألوه بجاهى ، فإن جاهى عند الله عريض ، فإنه لو كان هذا التوسل الذى كان الصحابة يفعلونه ، كما ذكر عمر رضى الله عنه ، لفعلوا ذلك بعد موته ، ولم يعدلوا عنه إلى العباس ، مع علمهم أن السؤال به والإقسام به أعظم من العباس ، فعلم أن التوسل الذى ذكروه هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات ، وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم ، فإن الحى يطلب منه ذلك ، والميت لا يطلب منه شىء ، لا دعاء ولا غيره .

كذلك حديث الأعمى فإنه طلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ له ليرد الله عليه بصره ، فعلمه النبى صلى الله عليه وسلم دعاء أمره فيه أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه فيه ، فهذا يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم شفع فيه وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، أى بدعائه وشفاعته ، كما قال عمر : كنا نتوسل إليك بنبينا ، فلفظ التوجه والتوسل فى الحديثين بمعنى واحد ، ثم قال يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى ليقضيها ، اللهم فشفعه فىّ ، فطلب من الله أن يشفع فيه نبيه ، وقوله

يا محمد يا نبي الله ، هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى فى القلب ، فيخاطب المشهود بالقلب ، كما يقول المصلى السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، وإن لم يكن فى الخارج من يسمع الخطاب .

واعلم ، رحمك الله ، أن العبادات مبناها على الأمر والاتباع ، لا على الهوى والابتداع ، والتوسل الذى جاءت به السنة والأحاديث الصحيحة ، هو التوسل والتوجه إلى الله بأسمائه وصفاته ، وبالأعمال الصالحة كالأدعية الواردة فى السنة نحو اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم .

وفى الحديث الآخر « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وكقوله فى الحديث الآخر « اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، واستأثرت به فى علم الغيب عندك » . وكما حكاه الله سبحانه عن عباده المؤمنين ، أنهم توسلوا إليه بصالح أعمالهم ، فقال تعالى حاكيا عنهم : « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا » . . . الآية .

وكذلك ما تقدم من قصة الثلاثة الذين أوَوْا إلى الغار ، فانطبقت عليهم الصخرةُ ، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم ، وكالتوسل بدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم فى حياتهم ، كما كان الصحابة يتوسلون بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء ، وكذا توسلهم بالعباس ، وبيزيد بن الأسود ، وتوسل الأعمى بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، فهذا من الأمور المشروعة ولا نزاع فيه ؛ وأما التوسل بالذوات فما الدليل على جوازه ؟ ومن قال هذا من الصحابة

والتابعين ؟ و إذا وقع النزاع فى مسألة وجب رد ذلك إلى الله والرسول ، كما قال تعالى : «فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» وقال تعالى : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله» . ومعلوم أن هذا لم يكن منقولا عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من السلف ولا ريب أن الأنبياء والصالحين لهم الجاه عند الله ، لكن الذى لهم عند الله من الجاه والمنازل والدرجات أمر يعود نفعه إليهم ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا ، فإذا توسلنا إلى الله بإيماننا بنبيه صلى الله عليه وسلم ، ومحبته وطاعته واتباع سنته ، كان هذا من أعظم الوسائل .

وأما التوسل بنفس ذاته ، مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته ، فلا يكون وسيلة ، فالمتوسل بالمخلوق إذا لم يتوسل بدعائه أو بمحبته واتباعه ، فبأى شىء يتوسل ؟ والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة ، فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك ، مثل أن يقول لأبى الرجل أو صديقه أو من يكرم عليه ، اشفع لنا عند فلان ، فهذا جائز ، و إما أن يقسم عليه ، ولا يجوز الإقسام بمخلوق ، كما أنه لا يجوز أن يقسم على الله بالمخلوقين .

و يزيد المقام وضوحا ، ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ، بعد كلام سبق ، قال : « لفظ التوسل والتوجه يرادُ به أن يتوسل إلى الله ، و يتوجه إليه بدعائهم وشفاعتهم ، فهذا هو الذى جاء فى ألفاظ الصحابة من السلف رضوان الله عليهم ، كما فى صحيح البخارى أن عُمر بن الخطّاب رضى الله عنه استسقى بالعباس ، وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا ، فهذا إخبار من عمر رضى الله عنه عما كانوا يفعلونه وتوسل منهم بالعباس كما كانوا يتوسلون بالنبى صلى الله عليه وسلم » قال : وهذا هو الذى ذكره

الفقهاء فى كتاب الاستسقاء ، قالوا : و يستحب أن يستسقى بالصالحين و إن كانوا من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أفضل . انتهى .

* * *

وقد أزحتُ بحمد الله الإشكال وأوضحت فيه الحال . وقد قرر جمع من العلماء ماقرره شيخ الإسلام فى معنى حديث الأعمى ، و بينوا أنه ليس فيه إلا طلب الدعاء من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا دلالة فيه على التوسل بالذات ، كالعلامة السويدىّ وابنه ، والشيخ نعمان بن العلامة محمود افندى الآلوسى ، فى رده على هذا العراقى، ونقل كلامهم يفضى إلى التطويل ، وقد تقدم ما فيه كفاية لطالب الحق .

وقال السويدىّ رحمه الله فى شرح العقد الثمين ، بعد كلام سبق « وهذا التوسل الذى ذكر فيه الخلاف ، فيما إذا كان الداعى يتوجه إلى ربه متوسلا إليه بغيره ، مثل أن يقول أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمته أو بحقه ، وأما إذا توجه إلى ذلك الغير ، وطلب منه فهو شرك . كما تحقق » انتهى .

وهذا عين التحقيق ، و بالله تعالى التوفيق .

وقد أكثر هذا العراقىّ من ذكر عبارات الفقهاء فى باب الاستسقاء من قولهم و يباح التوسل بالصالحين ، وأكثر من تكرير عباراتهم فى ذلك للتهويل ، وطول بذلك أشد التطويل ، وظن أن فى ذلك دليلا على ما يدعو إليه من الشرك بالله ، وحاشا علماء الدين وأهل الحق واليقين أن يجوزوا الشرك بالله ، أو أن يحوموا حول حماه ، وإنما معنى ذلك التوسل به بدعائهم وابتهالهم لا غير ، كما تقدم ذلك . والله أعلم .

فصـــل

وذكر العراقى ما روى عن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما ، أن كلا منهما خَدِرَت رجله ، فقيل لـكل واحد منهما اُذْكر أحب الناس إليك ، فقال : يا محمد .

والجواب أن يقال : سبحان الله ! هذا غاية ما عند هذا وأمثاله ، ونهاية محصول إشكاله . كيف يروم معارضة القواطع القرآنية ، والأحاديث النبوية ، الدالة على وجوب إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله وحده ، ويحاول صرف الدعاء الذى هو مخ العبادة إلى غير الله تعالى ، بهذا ونحوه ؟

ولنذكر الجواب عن ذلك :

قال الشهاب الخفاجىّ رحمه الله تعالى فى شرح الشفاء : ورَوَى ابنُ عمر رضى الله عنهما، رواه ابن السُّنِّى فى عمل اليوم والليلة خَدِرت رجله : أى أصابها خَدَر فهو أمر يعترى الرجل لما يصيب العصب ، فيمنع من تحريكها بسهولة ، ويزول سريعا ، لأنه لو امتد كان فالجاً أو مقدماته ، فقيل له اذكر أحب الناس إليك ، لأن الناس جربوا فى الخَدَر أن من أصابه إذا ذكر محبوبه زال بسهولة ، لأنه بمسرته تنتعش الحرارة الغريزية فيندفع الخَدَر ، فصاح : يا محمداه ، يعنيه صلى الله عليه وسلم ، لأنه أحب الناس إليه ، وإلى كل مؤمن ، فانتشرت رجله ، أى امتدت ، لزوال خدرها ، وهذا يقتضى صحة ما جربوه . وقد يقال : إنه وقع مثله لابن عباس رضى الله عنه وفيه يقول أبو العتاهية :

وتخدر فى بعض الأحايين رجله ... فإن لم يقل ياعَتْب لم يذهب الخدر

انتهى فهذا جواب ما ذكره ذو اللب المعكوس والقلب المنكوس ، وهل يحتج بمثل هذا الأثر المذكور بصيغة التمريض على جواز الشرك بالله إلا ذو قلب مريض ؟

فصل

قال العراقى : وههنا شىء يفيدك إن كنت تزعم أن التوسل ونداء الأنبياء والصالحين وطلب الشفاعة منهم حرام ، فقد ذكر الفقهاء من كل مذهب فى باب الشهادة المحرمات الكبائر والصغائر واستوعبوها فانظر هل ترى هذا من المحرم ؟ ثم قال : نعم ، ذكروا أن السجود لغير الله من المحرمات ، فإذا كان السجود لغير الله من المحرمات ، وهو من أخص العبادات الخاصة بالله لم يحكم على فاعله إلا بالذنب دون الكفر المخرج عن الملة ، كيف يكون التوسل كفر ؟ انتهى .

أقول : تأمل كلام هذا الضال المخذول ، وانظر إلى خروجه عن المسموع والمعقول ، يقول إن السجود لغير الله محرم ، فظاهر كلامه أن السجود لغير الله محرم وليس بشرك ، وعنده أيضاً أن السجود لغير الله ذنب وليس شركا ، فانظر حيرة هذا الجاهل وعمايته ، وبلوغه فى الضلال غايته ونهايته ، وقد قال الله تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . فهل صرح القرآن بأن الشرك من المحرمات أم لا ؟ فالشرك أعظم ذنب عصى الله به ، وأشد المحرمات تحريما ، وأعظمها عند الله تأثيما .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك .

قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون » الآيات ، فانظر : هل سمى الشرك ذنبا ؟ والشرك أظلم الظلم ، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه أيضا ، قال : لما نزل قوله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : « إن الشرك لظلم عظيم » فليت شعرى ما الذى يُخْرِج عند هذا من الملة إذا كان الشرك بالله لا يخرج عنده من الملة وإنما هو ذنب ؟ » .

قوله : فلو كان ذلك كفرا للزم ذكره فى باب الردة ، إلى آخر كلامه .

يقال : قد ذكر ذلك الجهابذة العلماء ، وصرح به النبلاء الفهماء ، اتباعاً لكتاب الله وسنة رسوله ، كما تقدم من كلامهم القليل ، لكن ثم ماذا إذا أعمى الله بصيرتك ، « ومن يُرِدِ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » .

وقال البخارى رحمه الله فى صحيحه : باب المعاصى من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وقول الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . وانظر باب الردة من كل مذهب فأول ما يذكره الفقهاء أن يقولوا : من أشرك بالله تعالى كفر ، لقوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » . ومرادهم هذا الذى تسميه أنت وأضرابك توسلا وتشفعا واستمدادا ، وهل ينفعك تسميته بغير اسمه وتغيير حقيقته ورسمه ؟ فالشرك

بالله تعالى الذى قامت عليه الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وكلام العلماء ، شرك بالله ، شاء المشرك أم أبى ، وهل ينفع شارب الخمر تسميته بغير اسمه ؟ والمرابى تسمية الربا بغير اسمه ؟ والنظر إلى المسمى لا إلى الاسم ، وبالله التوفيق .

فصـــل

ثم كذب العراقى وافترى ، فقال : وقد كفّر هؤلاء الناس الصحابة ، بقولهم للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا ذات أنواط ، ثم ذكر أنهم خوارج ، وذكر بعض الأحاديث التى وردت فى الخوارج .

والجواب : أن هذه دعوى كاذبة ، فتقابل بالرد والمنع ، وعدم القبول ، ومن المعلوم أن المشار إليهم من أشد الناس تعظيما ومحبة للصحابة ، وأعظمهم اتباعا لهم ، واقتفاءً لآثارهم ، ولكن لما تصدَّوا لبيان شركه ، وانتصبوا لهتك باطله وأفكه ، وأولجوه المضايق ، و بينوا الحجج الواضحة ، وحققوا الحقائق ، فصار قصاراه بهتهم ورميهم بما هم براء منه ، وما أشبهه بمن قيل فيه :

ويشتم أعلام الأئمة ضَلّةً ولا سيما أن أولجوه المضايقا

والفرق بينهم و بين الخوارج : أن الخوارج يكفرون بكبائر الذنوب ؛ كالزنا والسرقة وشرب المسكر ونحو ذلك ، كما ذكره أرباب المقالات ، وهؤلاء إنما يكفرون بالشرك بالله ، كما تقدم بعض بيان ذلك بالأدلة الظاهرة والحجج المتناصرة ، من الكتاب والسنة ، وكلام علماء الأمة . وأما الذنوب كالزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها ، فحاشاهم من التكفير بذلك كما تقدم . فسبحان من طبع على قلوب من شاء مَن خلقه بعدله ! والخوارج كفروا والصحابة رضى الله عنهم ، بما جرى

بينهم من القتال ، كما جرى فى وقعة الجمل بالبصرة بين على وطلحة والزبير وعائشة ، وكما جرى بين على ومعاوية فى صِفِّين ، وتلك ذنوب لا يكفَّر فاعلها ، والصحابة رضى الله عنهم لهم حسنات عظيمة ماحية : إيمان ، وهجرة ، وأعمال ، وجهاد ؛ فالخوارج إنما كفروا أهل الإيمان بالذنوب ، وهذا وأمثاله عادَوا أهل التوحيد لما أنكروا عليهم الشرك بالله ، ودعوهم إلى إخلاص العبادة لله وحده ، لا شريك له ، كما كان الصحابة رضى الله عنهم مع نبيهم صلى الله عليه وسلم وبعده يأمرون بالتوحيد ، وينهون عن الشرك ، فالأشبه بالخوارج على الحقيقة من يكفِّر أهل التوحيد ، وينصر الشرك بالله والتنديد ، بل هؤلاء أشد من الخوارج ، لأن الخوارج كَفّروا بالذنب ، وهؤلاء كَفّروا بمحض الإيمان ، كما قال العلامة ابن القيم :

مَنْ لى بِشِبْهِ خوارجٍ قد كَفّروا ... بالذنب تأويلا بلا إحسان
ولهم نصوص قَصَّروا فى فهمها ... فأتَوْا من التقصير فى العِرفان
وخصومُنا قد كَفّرونا بالذى ... هو غاية التوحيد والإيمان

فالذى نعتقد وندين الله به وندعو إليه ، هو إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى ، وننكر أن يُصْرَف منها شىء لغير الله ، متمسكين فى ذلك بكتاب الله وسنة رسوله ، وهذا هو سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين . فمن سَبَّنا وأنكر علينا ، فقد سبَّ من كان على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون ، من التوحيد ونفى الشرك ، وذلك مَسَبَّةٌ للصحابة والتابعين ، فالسابُّ فى الحقيقة إنما سب الصحابة ، وأنكر عليهم ، لأن الذى أنكره هو دينهم ، وبالله التوفيق .

فهذا آخر ما قصدناه من الكلام على شُبُهاته ، والتنبيه على بعض خُزَعْبَلاتِه ، وقد سقطت به والحمد لله أباطيله ، واجتُثّت به وساوسه وأضاليله ،

وهذه الشبه الفاسدة لا تخدش فى وجوه براهين التوحيد القاطعة ، وأدلة الكتاب والسنة القاطعة . ولو تتبعنا جميع هَذَيانه وسوء فهمه لكلام العلماء ، وتصرفه فيه بالتأويل والحذف ، لطال الخطاب ، وكثر الجواب ، ولكن قد حصل المقصود ؛ وهو بيان التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، والجواب عن شبهات المبطلين ، والحمد لله على بيان الحجة ، ووضوح المحجة . و « الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » . والله المسئول أن يهدينَا و إخواننا صراطه المستقيم ، صراطَ الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين .

قال مؤلفه : وكان الفراغ من رَقْمه ، عشية السبت المبارك ، السادسَ عَشَر من شهر ربيعٍ الأول من سنة ١٣٩٤ بمكة المكرمة . على يد مؤلفه العبد الفقير إلى رحمة ربه ومغفرته ، « أحمد بن إبراهيم بن عيسى » عامله الله بلطفه الخفى ، وأجراه على عوائد بره الحَفِىّ ، وصلَّى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

ونقله من خط مؤلفه المذكور ، الفقير إلى رحمة ربه الغفور ، « عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن عامر » فرغت من زَبْده سنة ١٢٩٧ . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا .